ينظر ويبتسم

محمود أبو العزايم

مقدمة

كثرت قصص المهرجين المرعبين القتلة، لكن « مايك » لم يكن كذلك، لا يمكنك أن تتهمه لمجرد أنه كان منبوذاً ومكروهاً من الجميع.. ويا تري لماذا؟

لم يكن من ضمن طائفة متطرفة، ولم يكن يدعو لمعتقدات معادية للمجتمع، ولم يكن مختلفاً لدرجة الفطرة، ولم يكن يعاني أمراضاً نفسياً..

يجب أن تلوم المجتمع الذي كان يحُوله، ذلك الذي يصنع الأشرار، قال رجل ثري ذات مرة: لقد خلقَنا الله بشراً كي نرتقي إلى الملائكية، ولكن ما نحن الآن سوى شياطين لا نصلح إلى أن نكون بشراً!

فعقّب مايك عليه: إن الله خلقنا بشراً لنكون بشراً، ولا شيء سوى ذلك.. إن الله لم يُهدنا الكمال، لأنه هو الكامل، ونحن كبشر ما علينا سوى أن نفعل ما بوسعنا كي نكون أفضل، كي نكون نحن..

معبود المثقفين

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش صامتاً، فالصمت إثم.. ربما يعتقد البعض أنه بذلك يأمن، لكن هذا الآمان لن يدوم، وضريبته الإنفجار غيظاً في أحد الأيام، ربما يعتقد البعض أنه بذلك يأمن، لكني لن لا أعتقد هذا، لو لمْ أتكلم فسوف يحدث لي شيء؛ فأنا لم أُخلق للصمت..

كانت لديه نفس النظرة التي تنفذ من نظارته السميكة، كأنه يريد أن يسبني أو شيء من هذا القبيل، نظرة تسبق قوله المعتاد: ((هل جننت يا مروان؟))، إنه في الحقيقة ليس طبيباً نفسياً، لذلك كنت أشعر بضيقه عندما أطلب مقابلته، فحينها - فعلياً - أكون قد دمرت جدول مرضاه ووقته وكل شيء، لكني موقن أن هذا هو واجب ابن العم لابن عمه، وأيضاً لأنني سوف أُجن حقاً إن لمْ أبُح لأحد بما يحدث معي!

أنا مروان عبد الحليم، كاتب ومؤلف مصري، أو هذه كانت مهنتي في ويكيبيديا، أربعيني بائس قد اشتهرت بكتابات كئيبة، وقد تأكدت من هذا عندما قررت - ولأول مرة - أن أكتب رواية ذات قصة جيدة وشخصيات مستقرة نفسياً لا تعاني من معاناة وقسوة في

حياتها، وتنتهي الرواية بأجمل نهاية سعيدة يمكن أن تقرأها، وقد أعلمتني دار النشر أن رواية لمْ تحقق النجاح المعهود كباقي أعمالي الأدبية، حينها قررت ألا أكرر تلك التجربة مرة أخرى.

لاطالما كانت أفضل أوقاتي هو حضور حفلات مناقشة رواياتي الجديدة التي تحمل نفس الطابع السوداوي، أو جلوسي على أحد المقاهي القاهرية الهادئة بينما يحاصرني المعجبون بكراسيهم ليحجبوا الرؤية عن الزبائن الذين يشاهدون مباريات كرة القدم، ونقضي طول الليل في الأحاديث المبتذلة الحانقة أو الشجارات الأدبية المتحضرة..

تقع شقتي في الدقي، تلك الصومعة البائسة التي لا تنم إلا عن ساكن وحيد لا يأبه بأي شيء، أضواء باهتة وآلة كتابة وجهاز اللاب توب وشاشة تلفاز عريضة كستها الأغبرة عليها، وبعض ماكينات الطباعة والأوراق المبعثرة في كل مكان، أريكة تتوسط الصالة إتخذتها سريراً ودولاباً، تترمى روايات كافكا ودوستويفسكي على الأرض، وتنتشر أكواب الشاي والنسكافيه والقهوة في كل بقعة في الشقة، وكذلك بقايا السجائر.

رغم أنني لدي مبلغ لا بأس به من المال قد ورثت بعضه من والدي وبعضه من مدخراتي وإيرادات الروايات، لكني لا أجد متعة ولا نعيماً من صرفه على مرفهات الحياة، إن الحياة بالنسبة لي مجرد سجائر وطعام وماء ومنبهات، وليس شيء دون ذلك.

وتحت العمارة سيارة ماتسوبيشي من المفترض أن استعملها في مشاويري، لكنها الآن مجرد كومة من الصفيح تعلوها فضلات الحيوانات والطيور..

لم أفكر يوماً في الزواج، لا أحتاج فتاة قد وصل بها شر القدر إلى الزواج بشخص مثلي؛ فأمثالي لا يصلحون للتكاثر..

أما الأقارب.. فليس لدي سوى ابن عمي الطبيب ((فؤاد سرور))، هو الوحيد الذي تمَسك بي بعد وفاة والداي، وكان دائماً يزورني في المنزل ومعه العديد من أصناف الطعام الشهية التي تعدها زوجته أو أنه كان يشتريها من المطاعم ويكذب عليّ بعدما يضعها في أطباق من الفل، يأتي ويجلس لنتناول الطعام معي ويهديني بعض النصائح ويطلق بعض النكات، ويشمئز من عدم نظافة الشقة ويدعوني لتنظيفها - معاً - بعد الطعام، ولكن قد قلّت زياراته بسبب إفتتاحه لعيادته وزيادة مشغولياته وتعيينه مدرساً بكلية الطب، لكنها لم تنقطع على أية حال..

ومن طبيعة فؤاد أن يستمع إلي وكله رحب وأنا أتحدث عن مشاكلي التي قد تبدو بالنسبة إليه تافهة جداً، لكنه كان يناقشني ويتابعني كثيراً رغم أنه ليس طبيباً نفسياً، حيث كانت خبرته في معظم نواحي الحياة تلهمه حلولاً وإرشادات عظيمة وأنا اعترف بهذا وأشكره على تحملي وتحمل شكواي الطفولية..

ولمْ يعد فؤاد كطبيعته منذ ترددي عليه أكثر مما قبل، ولم يعد يتحمل أحاديثي وبدأ العبوس يعتلي ملامحه كلما يراني أفتح باب

غرفته في العيادة وألقي عليه سلامي وأجلس أمامه، وكانت البداية في أول أسبوع في شهر يناير..

ذهبتُ إلى فؤاد في عيادته التي تقع في أحد ضواحي القاهرة، متجاوزاً عشرات الزبائن والمرضى الذين ينتظرون دورهم بفارغ الصبر، كنت في حالة توتر وإرتباك رهيبة قد اجتاحتني منذ اليوم السابق، وكنت أدخن سجائراً بدون حساب ولا تفكير، حيث قال لي التمرجي - والذي يعرف أنني قريب فؤاد:

- التدخين ممنوع يا أستاذ مروان!

وأشار إلى لافتة على الجدار تفيد بذلك، لكني لمْ أعني به ولا باللوحة وأنتظرت أن ينتهي فؤاد من المريض الذي معه، وما إن خرج حتى اقتحمت على فؤاد غرفته، كان فؤاد قد استغل تلك الفرصة ليلْتهم سندويشاً يبدو أنه كان يخبأه في درج مكتبه، وكان موشكاً على الفتك بهذا الدخيل قليل الذوق الذي اقتحم عليه خلوته، والفتك بهذا التمرجي اللعين الذي لا يستمع لتعليماته جيداً، ولكن ما إن رآني حتى اطمأن وأكمل وجبته مرحباً بي بفم مليء بالخبز والجبن والخيار، جلستُ أمامه دون أن ألقي سلامي بسبب توتري، كان الدخان يتصاعد مني فوجدته يقول بهدوء:

- السيجارة يا مروان.. نحن في عيادة!

اطفأتُ السيجارة بينما أخذ هو يطمأن عليّ ويطمأن على رواياتي وكل هذا الكلام، ثم قلت فجأة:

- فؤاد.. أنا لمْ آتي هنا لأسلم عليك.

قال في بديهية وهو يلقي ببقايا طعامه في سلة المهملات:

- هذا واضح يا مروان، خصوصاً أن منظرك لا يوحي بأنك بخير.. لكني أنتظرتُ أن تبدأ أنت الكلام.

وأشار بيديه لأبدأ كلامي، أخرجت سيجارة وأشعلتها بينما نسيتْ ما قاله لي من قبل، نظر لي في إمتعاض لكني لمْ أركز، أخذت نفَساً وأنا أسأل:

- هل يمكن أن يتخذ ملك الموت شكل مهرج قبل أن يقبض روح العبد؟!

صمت في بلاهة من سؤالي وتعجب كثيراً، ثم قال مبتسماً:

- هل بدأت في كتابة الفانتازيا أم ماذا يا أخي؟

نظرتُ إليه فعلم أنني أتكلم بجدية، زاد تعجبه أكثر، وقال لي:

- ماذا تقصد يا مروان؟!

أخذتُ نفَساً آخراً، ثم قلت:

- منذ زمن بعيد وأنا ينتابني شعور غريب، شعور أنني مُعرّض للموت في أي وقت..

قاطعني قائلاً:

- كلنا ينتابنا هذا الشعور..

- لكن شعوري مختلف عن باقي الناس، لكني لا أعرف لماذا.. والبارحة قد قرأت أن ملك الموت عندما يأمره الله بقبض روح إنسان، يتشكل في هيئة تناسب عمل هذا الإنسان طوال حياته.

أشعلتُ واحدة أخرى متجاهلاً نظراته المرتابة:

- والبارحة أيضاً.. كنت عائداً إلى المنزل حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، كان الشارع فارغاً من جميع الكائنات الحية، وكان - إلى حد ما - مظلماً بحيث يصعب تحديد ملامح الناس، يكفي الضوء لرؤية الطريق فقط، وفجأة رأيتُ كياناً يقف بجانب صندوق قمامة على الجهة الأخرى من الطريق، كان يتكئ على حائط مبنى وراءه، لمْ أتبين ملامحه جيداً، لكني استطعتُ تحديد ملابسه، كان يرتدي ملابساً زاهية الألوان مثل التي يرتديها البهلوان في السيرك، أنا اتذكر هذا جيداً.. كان يصدر أصواتاً مثل ضحكات خافتة، أحسستُ أنه يسخر مني، تصلبتُ في موضعي وأنا أحدق به في خوف، تسارعت نبضات قلبي، كانت قدماي ترتجفان، وكان هو ساكناً أيضاً مثلي، وكنت واقفاً في هذا الوضع لمدة دقيقتين، أخذتُ أكلمه على أمل أن يجيبني بأي شيء، عرضتُ عليه المساعد لكن دون فائدة، ازداد الخوف داخلي أكثر وأكثر، وكان هناك شيء يمنعني من إنزال بصري من عليه، كانت ضحكاته مستمرة وكادت تنزع قلبي من موضعه، وجدتُ صخرة صغيرة تحت قدمي، تناولتها في تردد وألقيتُ بها على هذا الشيء.. لكنها تجاوزته، أقسم أنها مرّت من

خلاله واصطدمت بالحائط وأصدرت الصوت المعتاد!!، عزمتُ على الهرب، إلا أنه تقدم خطوتين، حينها ظهرت ملامحه جيداً، ظهرت لي كأن جميع الأضواء تسلطت نحوه قاصدة، كان وجهه مليء بمستحضرات التجميل التي يضعها المهرج أو البهلوان، بملابس فاقعة الألوان وشعر مستعار أحمر، وكانت الدماء تتدفق من عينيه! وكانت هناك إبتسامة عريضة تعتلي وجهه، حينها سألتُ نفسي: هل لهذا السبب قد تقدم تلك الخطوتين؟!.. لم يفعل أي شيء، كان فقط ينظر ويبتسم، تومض إبتسامته مبددة كل الظلام حوله، ولأول مرة تمنيت أن أعيش في الظلام طيلة حياتي، ثم فجأة وجدتُ يده الفارغة ترتفع نحو عنقه، أشار لي بإشارة كانت كافية لأطير من هنا!..

ثم لمْ أتكلم، كنت أنتظر فؤاد ليتكلم، لكنه لم يفعل، كان يرمقني فاتحاً فاه مندهشاً، ثم قال:

- هذا غريب جداً يا مروان، غريب ومخيف!، لا أعلم ما أقول.. هل أنت متأكد أن هذا ليس حلماً؟!

نهرتُه غاضباً:

- بالطبع لا يا أحمق!

لمْ يكن لهذا الحديث مغزى بالنسبة لفؤاد إلا شيئين، أن الحياة بمفردي قد أثّرت على ذهني بشكل غريب، أو أنني قد وضعت قدمي على طريق الإدمان، ولقد صارحني بهذا بشكل صادق، وكنت

أعلم أن هذا ما كان سيحدث منه، لكني لمْ أذهب هناك منتظراً شيئاً آخراً منه، لكني كنت احتاج أن أتكلم بشأن هذا الأمر وفوراً! حتى ولو لمْ أجد تفسيراً..

أنا أعلم أنني مستقر نفسياً ولا أعاني من شيء، لكني قد قبلتُ دعوة فؤاد كي أزور خبيراً نفسياً، وأعطاني كارت خاصاً بأحد أصدقائه المتخصصين بهذا القسم الطبي المعقّد، وبالفعل إتصل لي به وحددنا ميعاداً، وقد اعتذر فؤاد من الحضور معي بسبب العيادة مساءاً، لكنه أخبرني أن هذا الطبيب صديقه ولقد وصاه عليّ، وكعادته أهداني بعض النصائح وأبرزهم أنني احتاج إلى أن أصلي.. وبالتأكيد الزواج، فشكرتُه ورحلتُ.

وكان الميعاد بعد يومين لأن الطبيب في سفر، وخلال هذين اليومين لمْ اتأخر خارج المنزل، عندما تدق العاشرة أهرع إلى المنزل واتأكد من أن كل شيء موصداً بالداخل، الأبواب والنوافذ، وسكين أضعه بجانبي دائماً..

وذهبتُ بالفعل للطبيب، استقبلني الرجل بحفاوة وبدا عليه الإحترام والطيبة، جلستُ على الشازلونج وأرحتُ ظهري وأخذتُ أروي له، أروي بينما لا يفارق ذهني تلك الصورة البشعة لذاك المهرج وهو يتوعدني صامتاً!

وعندما انتهيتُ طلبت منه تفسيراً لذلك، صمت قليلاً ثم قال بنبرة هادئة:

- هل كانت لديك رهبة من المهرجين في صغرك؟

- لمْ أزر السيرك في حياتي، لكني رأيتُ بعض الأفلام التي يظهر فيها المهرج أو البهلوان وهو يداعب الأطفال، وقرأتُ رواية ((الشيء)) لـ((ستيفن كينغ)) وقد مرت عليّ بعض المشاهد من الفيلم المقتبس عنها، غير ذلك فإن حياتي لم تكن مرفهة كثيراً، كان أبي ينظر للضروريات دائماً، ولا اتذكر حتى أن مدرستي أقامت رحلة إلى السيرك..

- هل أنت متأكد من أن الحجر الصغير قد مر من خلاله عندما قذفته به؟

- نعم أنا متأكد! ولكن إذا لم يكن كذلك؟

- سوف يكون مجرد مختل عقلي أو صديق يمزح معك أو شيء من هذا القبيل..

- لكني لا أملك أصدقاءاً!، وإن كان شخصاً حقيقياً.. فما سبب الدماء التي كانت تنفذ من عينيه وقد أفسدت تبرجه؟

أشعل سيجارة وأعطاني واحدة، وأخذ يتحدث معي أنها ربما تكون هلاوساً، وذكر بعض المفردات الطبية الغليظة التي لمْ أفهم منها شيئاً، ثم أعطاني بعض اسامي الأدوية المهدئة، وأخبرني ألا أتردد إذا رأيت هذا الشيء مجدداً..

رحلتُ من عنده وأنا أقول في نفسي: يا أيها الأطباء النفسيون.. أنتم لمْ تختلفوا كثيراً عن الروايات!

وإتصل بي فؤاد ليسألني عن ما حدث، فأخبرته لكل شيء، وكذلك هو أمرني بألا استهين بالأمر وأن أستمع إلى كلام الطبيب جيداً وأنفذه و..إلخ..

ومرت الأيام وأنا أحاول تناسي الأمر، لكني لمْ استطع، لمْ تفارقني صورته ولا حتى في الأحلام، كان السادس من يناير نقطة تحول في حياتي، لقد إنهارت موهبتي تماماً، ولمْ استطع أن أمارس العمل الوحيد الذي يفرج عني، إن كل شيء لمْ يقف بجانبي، لمْ أحضر الكثير من حفلات توقيع ومناقشة رواياتي، ولم أحضر معرض الكتاب، حتى أن جلساتي على المقهى قلّت بشكل كبير، وأصبحت كالحبيس في هذه الزنزانة، أخرج لأشتري الطعام والسجائر فقط، أو أحياناً أبعث البواب لهذه المهمة.

حتى اعتدتُ - مرة أخرى - زيارة فؤاد في عيادته لأشكي له من الهلاوس التي آراها في الشقة، نعم.. الهلاوس عادت لتظهر في أركان في الشقة لأجزاء من الثانية، وهذا المهرج اللعين يعود مجدداً بإبتسامته، كل شيء جحيم، الخارج جحيم والداخل جحيم، وحتى الزنزانة التي كُتب عليّ أن أسكنها أصبحت كذلك..

كان في البداية يستمع لي ويسألني لماذا لم أذهب للطبيب النفسي وأخبره بذلك، لكن وبعدما كثرت زياراتي بدأت أشعر بضيقه

يتزايد.. وكانت لديه نفس النظرة التي تنفذ من نظارته السميكة.. حتى هذا اليوم الذي قال لي فيه:

- هل جننت يا مروان؟ اعتقدتك ناضجاً وعاقلاً يستطيع تجاوز المشكلات، وخصوصاً تلك المشكلة الغبية، لقد طال الموضوع كثيراً! إن لك شهران على هذا الحال! والطبيب النفسي.. من المستحيل أنه لمْ يصل معك لنتيجة، بل أنت من تصر على هذا الهراء! لقد أخبرني أنك لمْ تزوره إلا جلستين فقط..

لمْ أر فؤاد هكذا في حياتي، كان ساخطاً عليّ ويوجه كلمات قاسية كأنها تطعنني من داخلي، قلتُ له مدافعاً عن نفسي:

- ولكني لمْ أجد فائدة منه! الأمر ليس نفسياً!

- ليس نفسياً!؟ ماذا تقصد؟ أتقصد أنك ممسوس! يا متعلم يا مثقف!!

- لمْ أقل هذا.. أنت لم تفهمني.

- ولن أفهمك أبداً.. عندما تغدو مروان العاقل يمكنك أن تأتي وتكلمني مرة أخرى.

لمْ أنتظر لحظة، نهضتُ ورحلتُ من أمامه، لم يكن فؤاد هكذا.. أنا أقسم بهذا!!

ذهبتُ إلى المقهى واحتسيتُ فنجان قهوة وأنا أشاهد مباراة كرة قدم، لقد سجل هالاند هدفاً مجدداً.. يا لهذا اللاعب! سعد الجميع في

المقهى بالهدف، وذهب المخرج بالكاميرا إلى المدرجات حيث المشجعين تكاد تنفطر قلوبهم من الفرحة والحماسة، لكن ما هذا؟!

إن المهرج وسط المشجعين، ينظر ويبتسم لي، بنفس مظهره المخيف، أنا لا أهلوس!!

- أترى ذلك المهرج؟!

نظر لي الرجل الخمسيني الشائب - الذي يجلس جانبي - متعجباً:

- أي مهرج يا أستاذ مروان؟

إقتربتُ من الشاشة وأشرتُ له بإصبعي على موقع المهرج حيث أن المخرج لازال يسلط كاميرته على هذا المكان بالضبط:

- هذا يا عم مصطفى! ألا تره؟ ألا يره أي منكم..؟!

نظر لي عم مصطفى وباقي الزبائن في إستغراب، كذلك بقي المخرج على هذه الوضعية وظل المهرج ينظر لي بإبتسامته، كأنه قد رتب هذا مسبقاً، يقصد أن يستهزئ بي، الدماء تنزف من عينيه، كنت لازلت أسأل كل الناس حولي وكانوا يقولون أنهم لا يرون شيئاً، ثم أمسك المهرج بلافتة بلاستيكية كالتي يكتب عليها المشجعون عباراتهم التحميسية، كان مكتوب عليها بلون الدم: ((لن يراني غيرك، ولن يصدقك أحد.. ميعادك اقترب يا أيها الكاتب))..
ثم حوّل المخرج الكاميرا إلى المباراة واللاعبين، واختفى المهرج عن أنظاري.. حينها لمْ يأبه أحد بي وأكملوا متابعتهم وإهتمامهم

بالمباراة، بينما كنتُ سأجن حقاً!! وخمّن ماذا.. لمْ تمضِ عشرة دقائق إلا وسجل هالاند هدفاً آخراً، اندمج الجميع في الرقم القياسي الجديد الذي حققه النرويجي، بينما أنا كنتُ انتظر المخرج أن يذهب بالكاميرا إلى المشجعين مرة أخرى، وفعلاً حدث هذا، ضيقتُ عينيّ لأحاول العثور على المهرج مرة أخرى، لكن هذه المرة لمْ أره، لكني رأيت اللوحة وقد وضعها على مقعد له، لكن يبدو أنه أضاف جملة أخرى وهي: ((اقترب جداً)) ثم رسم وجهاً مبتسماً يبكي دماءاً..

قررتُ الرحيل إلى المنزل بأقصى سرعتي، كنت أتلفت ورائي مثل المجنون، وعندما وصلتُ إلى المنزل أغلقتُ الباب جيداً بالمفتاح، وارتميتُ على الأريكة وأمامي آلة الكتابة، وقد كتبتُ كل ما قرأتوه الآن.. لذا.. إن حدث لي أي شيء.. فإن كل مدخراتي تذهب إلى الجمعيات الخيرية، وكل إيرادات الروايات خاصتي توضع في حسابات بنوك مستشفيات السرطان..

مروان عبد الحليم

* * *

كان الرجل الأنيق ذو البذلة السوداء يجلس على مقعده بجانبه مدير دار النشر، كان هذا هو وزير الثقافة، وكانت أمامه لافتة تعريفية صغيرة مكتوب عليها اسمه، كذلك مدير دار النشر كانت

أمامه واحدة عليها اسمه، والثالثة كانت تحمل اسم ((أ. مروان عبد الحليم))، وكان المقعد المخصص له فارغاً، مما يعني أن مروان لمْ يحضر بعد، نظر المدير إلى أحد العاملين بالدار غاضباً وأشار له بأن يستعجل مروان لأن الندوة ستبدأ والحضور قد وصلوا، وهو يخشى أن يتضايق سيادة الوزير من هذا الموقف الحرج، هرع الرجل إلى مكان جانبي وإتصل بمروان:

- يا أستاذ مروان.. لقد تأخرت جداً، والوزير قد وصل والحضور وكل شيء جاهز، لم يتبقى سواك.

- أنت تعرف يا ممدوح! أنني لا أخرج من منزلي منذ ثلاث شهور تقريباً، ولولا الوزير ما أتيتُ، لا تستعجلني.. أنا في الطريق..

ثم أغلق مروان المكالمة..

وبعد خمسة دقائق.. وصل مروان الندوة المقامة بهذه القاعة الشاسعة، كان يرتدي بذلة سوداء غير مهندمة تنم عن عزوبيته، قام الجميع ليحيوه مصفقين، كان يبدو أن مروان مضطرب ومتوتر، كان يمشي بحذر ويتلفت حوله، المكان مليء بالحضور عدا كرسي أو اثنين، كلهم ناس طبيعيون ومحترمون، لكن عن ماذا يبحث بالضبط؟ صافح الوزير مبتسماً وجلس بجانبه، بينما نهض الوزير ليلقي كلمته، وتكلم عن مدى تقديره للمجهودات التي تقدمها دار مقام للنشر والتوزيع في تطوير المنظومة الثقافية وما إلى ذلك..

وكذلك مدير الدار الذي رحب أشد الترحيب بالسيد الوزير وتكلم جهد لوزارة في دعم دور النشر والمراكز الثقافية والمواهب الشابة.. إلخ..

ثم جلسا بينما تعالت أصوات التصفيق وكاميرات الصحفيين، وبدأت الأسئلة تنهال على مروان من الحضور..

- أستاذ مروان، ما رأيك في تحويل رواياتك إلى أعمال سينمائية ودرامية؟

ابتسم مروان وصمت قليلاً حتى يعد إجابته، ثم قال:

- إذا تواصلت معي شركة إنتاج وأخذت الموضوع على محمل الجد فإن من دواعي سرور..

صمت مروان.. كان يحدق بشيء، كان هناك مهرج يمشي بين الحضور ويتخللهم حتى وصل إلى المقدمة، ثم جلس على المقعد المقابل لمروان، كانت عينا مروان جاحظتين خائفتين..

- أستاذ مروان هل حضرتك معي؟

قال المدير لمروان هامساً:

- مروان.. أجب السيدة على سؤالها!

لكن مروان ظل يحدق بهذا المهرج الذي يبدو أن لا أحد غيره يراه، وكان المهرج.. ينظر ويبتسم..

الشاب العاشق

ما أجملهما شابين تحت ضوء القمر، يمشيان ويتسامران يعانقهما نسيم المساء المنعش، يشبكان يديهما معاً ويتحديان أي شيء، يتحديان الأسوار والموانع والحياة والظروف، ثم يقول الفتى الأشقر: ((إلى آخر نفَس؟ إلى آخر لحظة؟))، فتقول هي بصوتها الناعم وشعرها الأحمر يداعبه الهواء الطلق: ((إلى الأبد؟ حتى نتهالك وننتهي))، فيقول: ((إما أن ننتهي نحن؟))، فتكمل قائلة: ((أو ينتهي العالم!)).. فيقبل يدها ويكملان السير في الشارع الطويل الذي امتلأ بأوراق الشجر تذروها الرياح، تبتسم بجاذبيتها المعتادة فتظهر غمازتان صغيرتان تزينانها، عيناها الزرقاوان يفصحان بكل شيء، لا تحتاج إلى كلام لتعرف أنها.. تعشقه.

أما الشاب فهو عكس ما يظهره من شدة وقسوة، إنه لين ورومانسي، يلف إصبعه حول شعره المجعد البني، فتظهر طفولة تكمن وراء ((هنري دونالد روس))، ولا أحتاج أن أخبرك أن ((ميليندا سكوت)) حبيبته والتي أهدته ميدالية على شكل قلب صغير يضعه مع مفاتيحه، هكذا كانا دائماً.. بسيطين بعيداً عن كل ما حولهما، منذ ما كانت تسكن في الشقة المقابلة له هي وعائلتها، كانا تقريباً - حينذاك - في العاشرة أو ما شابه، حينها تكلما مع بعضهما أول

كلمة، ذاكرا أول درس، خرجا أول مرة، وليس في مطعم باهظ الثمن أو في مقهى في وسط المدينة، بل في شارع ((هارينغتون ستريت)) الأثري، حيث تترمى المقاعد في الحديقة المجاروة له، وحيث النسيم الذي لن تجده إلا في هذه البقعة، وحيث أصوات الأطفال تلهو تحت أنظار والديهم، وحيث العامل الذي يقص العشب بالآلة ذات الصوت المزعج وهو يضع سماعتي الرأس، وحيث أصوات الضحكات والقبلات والأراجيح، وحيث آشعة الشمس تخترق الغطاء النباتي، حيث السناجب والحمام والبجع حول البحيرة.

كان قراراً جيداً من البلدية بعدم مرور السيارات في هذا الشارع، رغم أن الطريق مهيأ لذلك، لكن كان ذلك سيعبث بالمنظر الطبيعي المقدس الذي لن يوفيه وصف.

كان هذا مكانهما المفضل، وخصوصاً عندما تقل الضوضاء في المساء عند العاشرة مساءاً، يقضيان الوقت دائماً في السير بهذا الشارع، يلقيان الكلمات الشاعرية ويرويان القصص الخيالية، حتى ينتهي طريقهما بدخول كل منهما إلى شقته، حيث يسرقان آخر نظرة في أعين بعضهما قبل أن بتقابلا مرة أخرى صباحاً..

ولكن.. لمْ تجري الأمور على ما يرام هذه المرة، وبدأ كل هذا في أول أسبوع في شهر يناير..

* * *

كانا يسيران في الدرب الطويل، ليس هناك ضوء سوى ضوء البدر وأعمدة الإنارة الواهنة، يمسكان بأيدي بعضهما ويتكلمان، قالت ميليندا في رقة:

- أنظر فوقك..

رفع هنري رأسه للسماء ليجد البدر مكتملاً، فقال:

- ماذا هنالك؟

- ألم تلاحظ شيئاً؟

ابتسم قائلاً:

- نعم لاحظت..

- وماذا لاحظت بالضبط؟

- لاحظت أن بالليلة بدران، أنتِ والقمر.

انفجرت ضاحكة.

- مبتذل جداً.

ابتسم حرجاً:

- نعم.. أعلم.

أعادت سؤالها في إصرار..

- هل لاحظت شيئاً؟

هز كتفيه في جهل عن ما تقصده، فقالت:

- إنه البدر.. مكتمل الليلة..

- وماذا إذاً؟

- إنها ليلة المستذئبين.. وبهذه المناسبة، أريد أن أسألك سؤالاً..

أشار بيده لتتكلم.

- تفضلي أميرتي..

- هل أعجبتك الرواية التي أرسلتها لك لتقرأها؟

صمت قليلاً ليفكر.

- نعم! أتقصدي تلك التي كاتبها مصري؟

- بالضبط.. ما رأيك؟

ضحك ساخراً، بينما تضايقت هي غير مدركة سبب ضحكه.

- ماذا هنالك؟!

- إنه معقّد بالتأكيد.

- لماذا تقول هذا؟

- إنه يريد أن يوصل للناس أن كل البشر مجانين ويعانون أمراضاً ومشاكل وإضطرابات، الحياة ليست كذلك..

قالت محاولة إثبات وجهة نظرها:

- ربما وضعته الظروف بين أناس كذلك، وترك هذا فيه أثراً، لذلك..

- لذلك أخرج ذلك الأثر في كتاباته.

- نعم هذا ما أقصده..

قال وهو يركل الحصى في الأرض:

- ربما يا عزيزتي.. ربما.

- أتتذكر الجملة التي افتتح بها الرواية؟

صمت في بلاهة.

- بصراحة لا أتذكرها.

- كانت الجملة هي ((ما هي إحتمالية أن تقابل شخصاً يضحي بنفسه من أجلك؟ أن يفضلك على نفسه ويلقي بها في المخاطر من أجل إسعادك أو إنقاذك)).

- نعم تذكرتها!

توقفت عن السير وهي تقول بنبرة هادئة:

- هنري.. ماذا ستفعل لو هاجمنا مستذئب الآن؟ بينما لا ناس ولا شرطة، لن يسمعنا أحد، سيتفاجأ الكل بخبر العثور جثتين خالية من الأحشاء وبعض الأعضاء..

صمت هنري يفكر، ليس من طبيعة ميليندا أن تسأل مثل تلك الأسئلة، لكن يبدو أن بها شك ما، أو أنها تتهمه بالجُبن أو الضعف، لذا قال بنبرة غاضبة واثقة:

- وهل تحسبينني سوف أنتظر حتى يحدث هذا؟ أو حتى أنتظر حتى أن يمسكِ أحدهم بسوء! لا مستذئب ولا مصاص دماء ولا قاتل متسلسل ولا أي شيء سوف يمسك طالما لازلت حياً!

كانت تنظر له مبتسمة، وكان هو متعجباً من إبتسماتها.

- إنها مزحة يا أيها الأبله! أتحسبني لا أعلم هذا؟

ضحك ليجاريها بينما أحس أنها عادت لطبيعتها.

- أنتِ الوحيدة التي أسمح لها بأن تنعتني بالأبله!

- لتعلم أنني أقوى منك، وأنت تخشاني بشكل كبير!

- أنت أقوى من أي شيء يا عزيزتي.

أمسكا بيدي بعضهما وأكملا سيرهما وهما يضحكان، ولكن فجأة توقف هنري عن السير، تصلب في مكانه دون مقدمات، يبدو أنه كان يحدق بشيء ما، عيناه واسعتان بشكل مرعب، أخذت ميليندا

تسأله في ريبة من منظره، ونظرت إلى الجهة التي ينظر إليها فلم تجد شيئاً، أما هو فكان يرى شيئاً ينظر إليه ويبتسم إبتسامة واسعة مخيفة، ويرتدي رداءاً كثير الألوان الفاقعة، وشعراً مصبوغاً بطريقة غريبة، ووجهه دهون باللون الأبيض الناصع، وأنفه أحمر مستدير، ثم فجأة وجد دماءاً تقطر على الأرض، كان مصدرها عيني هذا الشيء الفظيع، إنه يشبه مهرجي أعياد الميلاد، لكن شكله أسوأ وأكثر رعباً، لم تفهم ميليندا ما هي هذه الحالة التي حبيبها بها، الرعب يتشكل في ملامحه، أخذت تحركه وتنهره كي يتكلم معها، ومن حين لآخر تنظر إلى الجهة التي يحدق بها فلا تجد شيئاً.

سمع هنري أصواتاً تخرج من هذا الكيان، إنها مثل الضحكات لكن كينونتها مرعبة، أخذ هنري يرتعد في مكانه، ثم هرب من المكان تاركاً ميليندا وراءه، كان يصرخ كمن سمع الموت يناديه، تساءلت: ((أين ذهب هذا الأبله؟!)) ميليندا تطلب منه التوقف عن الركض، لكنه اختفى من نظرها، وفي حركة جريئة منها ذهبت إلى المكان الذي كان يحدق به هنري وأخذت تفتش في الظلام جيداً، لكنها لم تجد شيئاً.

وإضطرت إلى إكمال طريق عودتها بمفردها.

* * *

دخل شقته وأوصد الباب، ثم زمّل نفسه تحت الفراش مرتجفاً، لا يفارق خياله هذا المنظر البشع، لا يفكر في شيء سواه، يتنفس سريعاً وتتسارع نبضات قلبه بسبب ركضه حتى وصل إلى المنزل، يشعر بالبرد الشديد، ثم فجأة جاءه النوم من حيث لا يدري.

وفي الصباح عندما استيقظ، كانت لاتزال ذكرى البارحة تراوده، إلا أنه تذكر شيئاً مهماً.. ميليندا!

لقد أدرك أنه تركها بمفردها البارحة، خشي أن يكون قد أصابها مكروهاً، فنهض ليرتدي ملابسه، وذهب ليدق على باب منزلها، لكن لم يجب أحد، زاد قلقه.. لكنه قرر أن يذهب إلى الجامعة فلربما تكون قد سبقته إلى هناك، أو أنها لم تعد إلى المنزل البارحة!

هرع إلى الجامعة التي تبعد عنه حوالي كيلومترين، وعندما وصل إلى هناك رأى صاحبه ((مارتن)) في الباحة، قال له وهو يلهث:

- مارتن! هل رأيت ميليندا؟

ضحك مارتن غير مهتم بمظهر هنري المذعور.

- يا إلهي! لمْ أكن لأتوقع أن يأتي اليوم الذي لا تأتيان إلى الجامعة معاً..

حاول هنري تنظيم أنفاسه كي يستطيع الكلام، ثم أخذ يجول ببصره في أنحاء الباحة.

- مارتن.. صدقني، هناك مشكلة كبيرة! يجب أن تخبرني أين هي الآن.

قال مارتن وعلى وجهه تلك الإبتسامة السمجة:

- أنا لمْ أرها اليوم.. يبدو أنها لمْ تأت.

تركه نري بينما لمْ يجد البال الرائق لسبه، لكنه لم يهتم سوى بأن يجد ميليندا.. وإتجه سريعاً إلى البوابة الخلفية وخرج إلى الشارع، وأخذ يتلفت حوله، سأل رجل الأمن العجوز قائلاً:

- ألم ترى طالبة ذات شعر أحمر قد خرجت من هنا؟

هزّ الرجل رأسه نافياً، فتركه هنري ثم توقف في منتصف الطريق، وضع يديه على رأسه في قلة حيلة.

وفجأة أحس هنري بصداع قوي في رأسه، كأن فيلاً يثور في جمجمته، ضغط على رأسه وأغلق عينيه متألماً، وأحس بدقات قلبه تتسارع، جلس على الرصيف حتى تتحسن حالته، ثم أخذت هلاوس تراوده جعلت الموقف أكثر صعوبة، لا ليس بخير أبداً، لماذا يتذكر أمه الآن؟ كانت تقف أمامه، ثم اقتربت من أذنه بينما هو عاجز عن فعل أي شيء، وقالت هامسة:

- الوقت ينفذ يا بُني..

أخذ يقول لنفسه دامعاً: إنها ليست أمي!

هكذا قضى ربع ساعة في موضع مريب يرمقه المارون في تعجب، لكن لم يجرؤ أحد على الذهاب إليه..

وعندما أفاق هنري مما كان به، زادت رغبته في إيجاد ميليندا لكي يخبرها بما يشعر به، يخبرها بما يحدث البارحة، يخبرها أنه ليس بخير..

فكر قليلاً ثم قرر أن ينتظرها أمام باب شقتها حتى تأتي، لن يتزحزح حتى تأتي.

أمسك بهاتفه في يأس وإتصل بها لكن كان هاتفها مغلقاً كالعادة.

دخل إلى ملعب الهوكي وأخذ مضرباً خشبياً وخرج به، ظل ممسكاً به أثناء مكوثه عند باب شقة ميليندا، لف حوله لحافاً ثقيلاً للتدفئة، ووضع تحته سجادة صغيرة كي يجلس عليها، وارتمى على الأرض مسنداً ظهره على الحائط خلفه.

قضى اليوم أمام باب الشقة، ولاحظه العديد من الجيران وكانوا يرمقونه في إرتياب، لكنه لم يكن يأبه بنظراتهم، وإن الجو قد ازدادت برودته أكثر من قبل.

شعر باليأس من عودتها إلى المنزل الليلة، خصوصاً أن الساعة قد تخطت الحادية عشر ونصف، ذهب إلى الشقة المقابلة لشقة ميليندا، كانت تلك شقة السيدة لوسي، إن العلاقة بينها وبين ميليندا وطيدة جداً؛ حيث أن السيدة لوسي عجوز قاربت الستين، وهي وحيدة وكان لديها ابنين لكنهما لا يعيشان في المدينة، ودائماً ما

تزوران بعضهما وأحياناً تدعو السيدة لوسي - ميليندا لتناول الغداء معها، وتساعد ميليندا السيدة لوسي في شراء حاجيات المنزل والذهاب معها إلى الطبيب.. كان هذا آخر أمل لدى هنري، ربما تعرف السيدة لوسي مكان ميليندا.

في خطوات قد تأثرت بطول مدة الجلوس على الأرض ترنح هنري إلى شقة السيدة لوسي ودق الباب بهدوء، لم ينتظر كثيراً ووجد السيدة لوسي السمراء ذات الطلّة المريحة التي تذكرك بجدتك دائماً، كانت ترتدي معطفاً منزلياً من الصوف وتغطي شعرها القصير بقبعة أطفال، شعر هنري بالجو الدافئ النابع من مدفئتها.. ابتسمت السيدة لوسي، ثم قالت في نبرة حنونة:

- هاري.. لك فترة لم تسأل فيها على السيدة العجوز!

قال بينما شفتيه ترتجفان من البرد:

- أنا متأسف لك سيدة لوسي، كيف حالك وحال ابنائك؟

- إنهم بخير، أنت كيف حالك؟

- جيد يا سيدتي.. فقط كنت أريد أن أسألك سؤالاً..

رفعت يدها كي تدعوه للدخول إلى المنزل، لكنها لاحظت من ورائه السجادة وعصى الهوكي واللحاف أمام باب شقة ميليندا، فقالت متسائلة:

- ميليندا ليست معك؟

- هذا ما كنت أريد أن أخبرك به..

شعرت برجفته فقالت:

- أدلف إلى الداخل أولاً.. إن الجو شديد البرودة، ثم إن المكان يوحي أنك قضيت وقتاً كثيراً هنا.

وفعلاً دلف هنري إلى الداخل، وخرجت السيدة لوسي لتجمع أغراض هنري التي بالخارج ثم وضعتها بجانب الباب وأغلقته.

جلس هنري على الأريكة القريبة من المدفئة، وتمنى أن يقفز في النار بين الحطب المحترق، وأحس براحة في منزل السيدة لوسي كما اعتاد دائماً، كانت صورها هي وابناءها معلقة على الحائط بين العديد من الصور، تعلوهم صورة السيدة البتول، وتحتها الصورة التي جمعتها به وبميليندا في عيد ميلادها، ذلك اليوم الذي لم يحضر أحد من أقاربها وأخبرته ميليندا بذلك فذهبا واشتريا كعكة جميلة وهدية قد انتقتها ميليندا بذوقها الرفيع..

أتت السيدة لوسي بطبق حساء دجاج ساخن وأعطته إياه، جلست على المقعد خاصتها وأمسكت بمعطف جميل تمارس هوايتها المفضلة ((الحياكة)).

- قُل ما الذي كنت تريد قوله؟

قال هنري بينما امتلأ فمه بالحساء لذيذ المذاق:

- هل رأيتِ ميليندا البارحة؟ لأنني بحثت عنها هذا الصباح في الجامعة وسألت كل صديقاتها لكنني لم أجدها.. أنا قلق جداً عليها!

- وليس هذا فقط.. بل إن وجهك يبدو شاحباً أيضاً.

تحسس هنري وجهه ليجده بارداً.

- لست في حالتك الطبيعية، لكن لا تقلق.. لقد سمعتُ صوت غلق باب ميليندا ليلة البارحة حوالي الثانية عشر تقريباً.

تنفس هنري الصعداء مغلقاً عينيه بعدما سمع أخيراً ما يطمئنه، وارتسمت على وجه السيدة لوسي إبتسامة وهي تقول:

- حتى أنني استيقظت من نومي إثر قوة الصوت، يبدو أنها كانت في مزاج سيء.

نظر هنري إلى الأرض في تأنيب متذكراً أنه تركها بمفردها البارحة، لاحظت السيدة لوسي هذا فسألته:

- ما الذي حدث يا بُني؟

وضع هنري الطبق على المنضدة، ثم قال:

- لقد رأيتُ البارحة كابوساً.. لقد كنا نسير في شارع..

أكملت السيدة لوسي عنه:

- هارينغتون..

ابتسم هنري إبتسامة تنم عن مرارة في حديثه، ثم أكمل:

- وكانت الأمور على ما يرام كالعادة، كما تعلمين فإن دائماً نهرب من كل شيء أنا وميليندا في هذا المكان المقدس بالنسبة إلينا.. لكن تلك الليلة، لقد رأيتُ شيئاً أصابني بالخوف فجأة، أحسستُه يسحب روحي وتركيزي ولم أكن أعي بما يحدث حولي، كان منظره شديد الرعب والبشاعة.

إتسعت حدقتا السيدة لوسي وقد زاد إهتمامها.

- كان مهرجاً مثل الذي يظهر في أفلام الرعب، لكنه كان أسوأ.. كان يحدق بي وعينيه تنزفان دماءاً.. كان مبتسماً وينظر إلي ويصدر أصواتاً..

- وميليندا؟!

- أظن أن ميليندا لم تره مثلي، ولقد ركضتُ إلى المنزل مرتعداً مما رأيت، ولم أركز في أن ميليندا ليست معي، وهذا الصباح بحثتُ عنها في الجامعة وفي شقتها لكني لم أجدها..

صمتت السيدة لوسي مستوعبة ما سمعته، ثم نهضت تجلس بجانب هاري، ربتت على كتفه في رأفة بحالة، ثم قالت لتطمئنه:

- أنا أعلم لماذا أنت قلق.. أنت خائف من ميليندا مثل خوفك عليها، في نظرها أنت هربت من شيء هي لم تدركه مثلك، ربما حسبَتها مزحة سخيفة غير مبررة..

- ربما أنا كذلك.. أنا لا أعلم ما أفعل عندما أقابلها، ولا أعرف كيف أقالبها أصلاً!

- لا تخف من هذا.. سوف تقابلها لا محالة؛ أنت تعلم أنها لا تحب التغيب عن أيام الدراسة، المهم ان تشرح لها الأمر.. وهي ستتفهمك ولو طالت مدة غضبها.

ابتسمت السيدة لوسي وهي تنظر إلى صورة عيد ميلادها على الحائط، حينما كان هاري ممسكاً بيد ميليندا وأمامهما الكعكة الرائعة التي جلباها لها.

التمعت عيناها وهي تقول لهاري:

- ميليندا تحبك يا هاري، إسألني عن هذا!.. أنا من شهدتُ بداية كل شيء، حينما كان والديها يعيشان معها قبل سفرهما إلى كندا، كنتما صغيرين بريئين، كنت أنت تعمل مع والدك - لروحه السلام - في توصيل الألبان، وكنت تصر على دق بابهم لرؤيتها وهي تفتح الباب لك، كانت هي كذلك، تصر على فتح الباب لك.. ومضت الأعوام وأنا أتابعكما معاً، كبرتما معاً أمام عينيّ، تركني ابنائي عجوزة وحيدة بين أربع حوائط، وأنتما من تلقياني وأعطيتماني ما لم يعطينيه أي من فلذات أكبادي ولا زوجاتهم، وأفضل ما في علاقتكما هو الصدق.. شيء لا تتمتع به كل الناس في هذا الزمن الأعوج، لذلك فسوف تصدقك؛ لأنها لتحبك يا هاري، أنا أعلم هذا!

ثم استطردت:

- وبالنسبة لهذا الشيء الذي رأيته، فأنا أعدك أنك لن تراه مرة أخرى، ربما تكون هلاوس أو خيالك يمازحك، لا أريدك أن تقلق.

كان من شأن حديث السيدة لوسي أن يُسر هاري ويستحيل مزاجه تماماً ويُقتلع القلق من قلبه إلى حد ما، قبّل هاري يد السيدة لوسي وشكرها على كل شيء، أخبرته أنها ستتصل به إذا عادت ميليندا إلى المنزل.

رحل هاري إلى شقته وفيه بعض الأمل في أن هذا الشيء لن يأتيه مرة أخرى، وكان كل همّه الآن هو أن يوضح الأمر لميليندا ويعتذر لها عن ما بدر منه تلك الليلة، وخطّط أن يأخذها ويذهبا إلى أي مكان تريده ليقضيا وقتاً ممتعاً، عسى أن تقبل بهذا ميليندا عذره، لكنه يعلم أنها ليست بهذه السذاجة، لا تغريها هذه الأشياء.. طلب من الله العون والآمان، وأغلق عينيه ليغفو في سبات عميق..

* * *

استيقظ هاري صباحاً قبل موعد الجامعة، وقف أمام عمارة ميليندا منتظراً أن تخرج، لكنه لاحظ من نوافذ شقتها أنها ليست موجودة، ليست هناك أيّة حركة توحي بوجود أحد في الشقة، المصابيح مطفئة إذ اعتادت ميليندا أن تفتحها بسبب عدم قوة آشعة الشمس في الصباح الشتوي.

ذهب إلى الجامعة وأخذ يسأل صديقات ميليندا عنها مراراً ويسأل أساتذته وقضى يومه دون أن يدلف إلى المحاضرات، لكنه كالعادة لم يتوصل إلى شيء، فكّر في أن يسأل صديقه مارتن وهو الوحيد الذي رآها البارحة وأخبره أنها رحلت فوراً بعدما علمت بوصوله؛ لعلّه قد يكون رآها اليوم، لكنه لم يجده.

جلس في المقهى المجاور لكليّته وقد تملّكه اليأس فجأة، طلب فنجان قهوة وأخذ يحتسيه مشتتاً، لم يعرف ما الذي يفعله الآن، راوده نوع من الغضب بسبب تصرف ميليندا، لقد بالغت في ردة فعلها، من واجبها أن تستمع له وتعاتبه على فعله، لكن لا تختفي وتغلق هاتفها..

قطع شروده فتاة تقف بجانب الطاولة التي جلس عليها ممسكة ببعض الكتب، نظر فوجدها ((جيني)) صديقة ميليندا، ابتسمت تقول بصوتها الناعم:

- كيف حالك يا هاري؟

دعاها هاري للجلوس مجيباً:

- بخير.. كيف حالكِ؟

- بخير.. لم تحضر المحاضرات لك يومين، كنت أسأل إن كان هناك خطب ما؟

- لا ليس هناك خطب.. فقط إني مشتت قليلاً..

صمتت قليلاً ثم تابعت:

- كنت تسأل الفتيات عن ميليندا.. صحيح؟

نظر لها في إهتمام مترقباً:

- نعم هذا صحيح!

- إنني أسكن بجانب خالتها في شارع ((شارليت بانكي ستريت)) لقد رأيتها في منزلها البارحة، لكن لم تأت فرصة لكي أقابلها..

نهض هاري من مقعده مندهشاً:

- ماذا!

نهضت جيني متفاجئة من ردة فعله وهي تؤكد:

- نعم أنا أقسم لك بهذا!

- أين العنوان بالضبط؟

- إنه المنزل رقم 12 أو 13 لا أتذكر..

ترك هاري ورقة مالية على الطاولة ثم خرج من المقهى مسرعاً متجاهلاً جيني التي أخذت تسأله عن سبب تعجله المفاجئ، استوقف سيارة أجرة وأخبره بأن يذهب إلى شارع ((شارليت بانكي ستريت)) سريعاً..

* * *

دق هاري الجرس في إرتباك شديد، فتحت الباب سيدة أربعينية شقراء على قدر من الجمال، قال لها متلعثماً:

- مساء الخير.. سيدتي.. أاا.. هل ميليندا موجودة؟

سألته بنبرة ودودة:

- هل أنت صديقها؟

- نعم.. صديقها وجارها.

- ميليندا ليست هنا الآن.. لقد ذهبت مع بنات خالتها إلى المركز التجاري تقريباً..

- أي واحد سيدتي؟

عصفت ذاكرتها ثم قالت:

- ذاك الذي في الشارع المجاور، إنه قريب..

تذكر هاري موقعه فلم يهدر وقتاً، شكرها سريعاً وودّعها، وانطلق إلى هذا المركز التجاري..

كان شبه مزدحماً بالزبائن، في العادة تبدأ ذروة نهاية الأسبوع في المساء عندما تغرب، لكن على العكس فكان الكل مكدّساً على

المحال التجارية ولازالت الشمس لم تغرب، كان من الصعب عليه أن يعثر عليها وسط كل هذا.

لكن هذا لم يهمه، أخذ يشق الزحام ويتخلّل الجماهير ويدقّق في وجوه كل البنات التي يراها، زاد من صعوبة الأمر أن هذا المركز كبير المساحة وكثير المحلات، لقد هرِم لأكثر من ساعة، حتى وقف في الطابق الثالث والأخير وأصبح قادراً على رؤية كل شيء من موقعه، ضيّق عينيه وأخذ يبحث عنها بين الجماهير، وأخيراً رآها.. كانت جالسة بجانب النافورة التي تتوسط الطابق الأرضي، تضع يدها على خدها ويبدو أنها تفكر، شاردة تماماً وتنظر في الأرض، لقد اقتربت منها بعض الفتيات التي تمسكن بحقائب المشتريات ودعونها للذهاب معهم، لكن يبدو أنها رفضت فتركوها يائسين كأنما تكرر هذا الموقف من قبل، ذهبت ميليندا في شرودها مرة أخرى.

هرع هاري إليها وأخذ يتخبط بين الناس وتلقى السباب من هنا وهناك ومن هذا وذاك، يقتحم الصفوف ويستقل المصعد ويحاول ألا تغيب عن نظره.. في مثل هذه المواقف يتعطل المصعد دائماً متحدياً من به، لكن الحمد لله أن هذا لم يحدث، فتح هاري باب المصعد فوجد أنه أنزله في الطابق الثاني وليس الأرضي، إلتف ليعود إليه فوجده نزل إلى الأرضي، فقرر أن يستخدم السلم الكهربائي الذي لم يتركه الناس فارغاً، كأن الضغط على السلم جعله مطباطئاً أو هذا ما شعر به هاري، كأن كل شيء يعارضه، الناس والظروف والكهرباء وقوانين الفيزياء.. وهناك شيء آخر خفي يشعر أنه يثقله، وشيء

يشعره بأنها النهاية.. سوف يلقى حتفه بعض هذه اللحظات، لكنه فجأة قال لنفسه بلهجة قاطعة وصارمة: ((فليكن هذا.. ولو متُ فسيكون آخر وجه ألقاه هو وجه ميليندا!!))..

قفز من السلم متجاهلاً رمقات الناس المتعجبة منه، وأخذ يدنو من ميليندا وهي لا تراه، يشعر كأن المسافة تطول والوقت يتباطأ، وأصوات غريبة ترن في أذنه.. لقد سمع هذه الأصوات من قبل، تزداد في ذهنه، إنها ضحكات المهرج!

ضحكات يطغى عليها صوت بكاء ومرارة، لأول مرة يسمعها بوضوح كأنه هو من يصدرها، يجول ببصره لكنه لم يجده، ولايزال مصِرّاً على الوصول إلى ميليندا قبل فوات الأوان..

لقد وصل أمامها، شعرت بوجوده فنهضت لتجده أمامها بالفعل، كان يلهث ويعلو صدره ويهبط، كانت صامتة تنظر إليه بلا تعابير، أما فهو فلم يهدر الوقت:

- ميليندا..!

أمسك بيديها وأخذ يقول لاهثاً:

- ميليندا.. أنا لست جباناً ولم أكن أمزح! لقد رأيتُ شيئاً في تلك الليلة عندما كنا في شارع هارينغتون، شيئاً مرعباً.. أنا أعلم أنكِ لم تريه، لكني فعلتُ.. ومن حينها شعرتُ بأن هناك شيئاً مخيفاً يراودني دائماً، وأنتِ اختفيتِ.. أنا خفتُ عليك وبحثتُ عنك في كل مكان.. لماذا فعلتِ هذا؟

كانت عاجزة عن الحديث، لقد قررت مسبقاً أنه إذا وجدها فلسوف تعاتبه وتصيبه بالكلام القاسي عندما يعتذر عن فعلته، لكن يبدو أنه صادق جداً، ملامحه تنم عن ذعر حقيقي، لامت نفسها على إختفائها المفاجئ والذي ظنت أن الإبتعاد عنه عقاب مناسب، لقد أدركت أنها بالغت بالفعل في هذا، والآن شغل بالها منظر هاري المجهد والخوف الذيْن لم تشهدهما من قبل.

- لا تبدو بخير يا هاري..

قال بصوته الذي تأثر كثيراً:

- لا يهم.. المهم أن..

قاطعته في إصرار:

- المهم أنت الآن.. يجب أن نذهب إلى المستشفى!

قالتها بعدما بدأ وجهه في الشحوب بشكل ملحوظ.

- هل سامحتِني؟

- أنا من أعتذر لك.. لقد أخطأتُ في حقك!

- لا عليكِ.. المهم أنت.. أن.. تكوني.. سامحتني..

ضعف جسده وبرزت العروق على وجهه وعنقه، وأحسّت ميليندا أن يده بشكل غريب، وهو كذلك ثقل لسانه وإشتد الجو برودة عليه..

أصرّت أن تأخذه معها خارج المركز التجاري وتذهب به إلى المستشفى، قال لها:

- ليس هناك وقت..

ثم أخذ يغمغم ويردد كلمات لا معنى لها، ازداد قلق ميليندا عليه، ثم فجأة جثى هاري على الأرض بين ذراعي ميليندا، أخذت ميليندا تبكي وهي تطلب المساعدة ممن حولها، إلتف الجميع حولهم يتابعون المشهد في قلق، أمسك هاري بيد ميليندا وقال لها:

- عرقي بارد.. قلبي.. ليس هناك وقت.. هل سامحتِني؟!

قالت وهي تبكي:

- سامحتك..

- هل تحبينني؟

- نعم بالطبع!

وأخذت تستنجد بأي أحد من حولها، جاءت بنات خالتها فأمرتهم بأن يتصلوا بالإسعاف فوراً.. وبينما أخذ هاري يهذي كانت ميليندا تطمئنه، فكان يردد: ((ليس هناك وقت))..

جاء أحدهم بقرص أسبرين ودسّه في فم هاري، ولم تتأخر الإسعاف وحمل رجالها هاري ووضعوه في السيارة، وركبت معه ميليندا، لكن فجأة عاد هاري كما كان على طبيعته، زال الشحوب

عن وجهه وأصبح في أفضل حال بدون أي عرض صحي، طلب من رجال الإسعاف أن ينزلوه من العربة، قاسوا له ضغط الدم ومعدل ضربات القلب والسكر وبعض ما يطمأنهم عليه، وتعجبوا من أن حالته الصحية لا تفشي عن أنه كان يشتكي من صداع نصفي حتى!

تعجبت ميليندا أيضاً من هذا، سمح له رجال الإسعاف بالنزول من العربة وعرضوا عليه توصيله لمنزله لكنه شكرهم، وطلبوا منه أن يتصل بهم أو أن يأتي إلى المستشفى إذا أحس بشيء غير طبيعي..

وقف هاري وميليندا أمام بوابة المركز التجاري الزجاجية الكبيرة، كان لازال بعض الناس يتابعونهما ويندهشون من أن هذه الجثة عادت إلى الحياة مرة أخرى، كذلك كانت ميليندا التي كانت ممسكة بذراع هاري وتقول له:

- حمداً لله على سلامتك..

- كنتُ موقناً أنها النهاية.. لكن لا أعلم ماذا حدث!

- إنه شيء عجيب بالفعل!

قبّل رأسها ثم قال:

- لن يبعدني أي شيء عنك مرة أخرى..

قالت وهي تلمح بهذا الشيء المخيف الذي رآه:

- حتى لو كان..؟

- حتى لو كان ذاك الشيء.. المهرج المخيف.

- أكان مهرجاً؟!

نظر في عينيها الزرقاوين وأومأ إيجاباً..

إنه لأمر غريب في نظر ميليندا.. لكنها لم تتحدث كثيراً، فقط قالت مكتفية من كل ما حدث: ((هيّا بنا إلى المنزل..))، وافقها في صمت، ثم أمسك بيدها وولوا ظهرهما للمركز التجاري.

ثم فجأة توقف هاري عن السير، وترك يد ميليندا ونظر إلى المركز التجاري مرة أخرى.. كأن شيئاً يناديه، أخذت تسأله لكنه لم يكن يجيب، كان يحدق بشيء، وسط الناس كان يقف هو.. ممسكاً بكرات صغيرة يتقاذفها بين يديه في خفة، ويسيل سائل أحمر يميل إلى السواد من عينيه، شعره مجعد طويل أحمر اللون، ووجهه مطلي بمستحضرات التجميل التي جعلت وجهه شديد البياض، كرة حمراء وضعها على أنفه، يرتدي ملابس فاقعة الألوان..

وينظر....

ويبتسم....

من يسمع اسمه يُجب!

استيقظ عابساً كعادة كل صباح، أنزل قدميه من على الفراش ودسّهما في نعليه، فرك عينيه، وأخذ يرمق شعاع الشمس المنسل من ستائر غرفته بنصف عينين، نظر إلى يمينه فوجد صورة زوجته المتوفية، يبدو من مظهرها الأرستقراطية ونصف الجمال والمكانة الإجتماعية المرموقة، تمتم ببعض الأدعية لها مترحماً على روحها.

دلف إلى الحمام فغسل وجهه وأسنانه، ثم خرج ليذهب إلى غرفته كي ينتقي ملابس اليوم، نعم إنه إختيار كل يوم.. بذلته ذات اللون الكحلي والبنطال صاحب نفس اللون والقميص المخطط والحذاء الأسود، وساعة اليد الفضية، لكنه نسي شيء! ربطة العنق، وقف أمام المرآة يمشط شعره الذي يزداد شيباً كل يوم عن الآخر، تحسس وجهه ليجد التجاعيد قد برزت أكثر، وكذلك وزنه.. لقد تذكّر نبرة طبيبه الغاضبة التي أمرته بالإلتفات إلى صحته، وأنه لن ينفعك عملك على حساب صحتك وإلخ..

خرج من غرفته بعدما ألقى نظرة أخيرة على نفسه، أو بمعنى آخر على شبابه الذي يذهب بهدوء وبألم، أو بمعنى آخر على العام

الخمسين وهو يدق الباب، أو بمعنى آخر على العمر الذي يركض ويفلت من بين يديه..

وأثناء مروره بالردهة وإنشغاله بربطة عنقه سمع صوتاً ما، أطلق سبة رفيعة المستوى ثم فتح باب أحد الغرف، وأضاء مصباحها لتظهر جثة تختبئ تحت الملاءة في هذه الغرفة المتدهورة، لكن من الغريب أن هذه الجثة تصدر صوت شخير، ذهب ليفتح ستار الشرفة ليدخل الهواء، ارتجفت الجثة لتظهر أنها ليست جثة، قال كامل في صرامة تناسب هيئته:

- أحمد! استيقظ يا أيها الطائش.. إنها السابعة والنصف، سوف تتأخر على المحاضرة الأولى، هيّا يا فتى حتى لا يأخذوك غياباً..

ثم استطرد قائلاً:

- ها أنا ذا أستاذ جامعي في كلية الزراعة واستيقظ يومياً الساعة السادسة والنصف..

خرج صوت أحمد من تحت الملاءة يقول في تذمر:

- يا أبي.. أنت تتقاضى راتباً، إنها مسؤولية عليك! أما أنا..

لكنه صمت مرة أخرى ليغفو، رفع كامل الملاءة ليرتجف أحمد مرة أخرى، وقال كامل:

- أما أنت.. فمسؤولية عليّ كالعمل بالضبط، هل تريدني أن أتركك تنام وتتجاهل كل شيء وأنت طالب جامعي.

- لقد ذهبتُ البارحة!

- وتذهب كل يوم! لا تصلح تصرفات الأطفال هذه..

ثم أردف متعجباً:

- سبحان الله!.. كل شيء لا تحتاجني لمتابعتك فيه، ما عدا الذهاب إلى الكلية، وكذلك كنت أيام المدرسة.

أسند أحمد ظهره وفتح عينيه:

- أنا لا أحب الإستيقاظ صباحاً.. إنه حمل عليّ.

- هل هذا أسلوب شاب يريد أن يكون مهندساً؟ كل الناجحين يفعلون أشياءاً لا تروق لهم لكنهم مجبرون عليها، ومع الوقت اعتادوا عليها وأصبحوا يحبونها.. وخير مثال أنا أمامك..

رمق أحمد أباه في خبث وسخرية قائلاً:

- أبي! لقد سمعتك عدة مرات تهذي وأنت نائم، كنت تتذمر من الإستيقاظ حينما يرن منبهك..

ابتلع كامل ريقه في إحراج.

- كما قلت.. إنني أهذي.

- لكني سمعت أن الكلام أثناء النوم يكون أصدق الكلام..

أراد كامل إنهاء هذا الموضوع فقال:

- تأكد من مصادرك في المرة القادمة.

نظر كامل في ساعة يده، ثم لام أحمد:

- لقد أخرتني يا فتى! هيّا قُم وأذهب إلى الجامعة، وسوف أتأكد من وجودك جيداً..

عزم كامل على الرحيل لكن أوقفه أحمد:

- أبي..

- نعم.

- هل رأيت ذلك الطالب الذي يتنكر في هيئة مهرج مجدداً؟

صمت كامل وقد بدا عليه القلق والضيق، وأجاب:

- لا يا بُني.. لم أره مجدداً، لكن لمَ تسأل؟

- فقط أطمأن عليك.

ثم تابع:

- أليس الأمر غريباً قليلاً؟ أن هذا الطالب المريب مر من الأمن على البوابة واندمج بين الطلاب دون أن يلحظه أحد وجلس في المدرجات ولم يره أحد غيرك، وفوق كل هذا لم تسجله كاميرات المراقبة!

قال كامل بعد برهة من التفكير:

- إن الأمر غريب.. لكنـ..

وجد أن لا طائل من إعادة هذا الحديث وتكراره، مضيعة للوقت وللعقل.

- لن أعطلك يا بُني.. هيّا تنشط وقُم، ربنا معك..

ثم خرج من الغرفة وفتح باب المنزل، استقل المصعد وعندما وصل إلى الطابق الأرضي ألقى التحية على ((عم وليد)) الذي انتهى لتوّه من غسل سيارة أحد السكان، ركب كامل السيارة الشاهين ذات اللون النبيتي، على التابلوه مصحف صغير وسبحة بيضاء متدلية من المرآة.. أغلق الباب ووضع وجهه بين ذراعيه على المقود آخذاً نفسَاً عميقاً.. لقد تذكر شيئاً جعله مرتبكاً، شيء قد ظن أنه نسيه، أو بالأحرى.. شخص!

* * *

انتظر أحمد صديقه ((صبري)) بجانب عربة القهوة في كلية الهندسة، أخذ يرشف الموكاتشينو وهو يرمق ساعة هاتفه، أحمد فارع الطول وقوي البنية، شعره ناعم بني اللون يخفيه تحت قبعة صغيرة، ذكي وسريع البديهة، عيناه سوداوتان جريئتان، يحسبه البعض قاسي الطباع، هو كذلك لكنه سهل المراس وإجتماعي المعاملات مع مختلف من يقابلهم في يومه، ليس من النوع الذي

يطلب الموكاتشينو بجملة واحدة، بل لقد فتح ستة عشر موضوعاً مختلفاً ما بين (كرة القدم وسيارة المعيد وكرة القدم و سيارة المعيد) مع صاحب العربة دون أن يلقي عليه السلام، وهذا يدل على وطادة علاقته به..

جاء صبري ممسكاً بحرف الـ((T)) والذي كان أطول منه على الأرجح، وعلى وجهه إبتسامة عريضة ليس لها داعي، وعيناه واسعتان، وكطبيعة صبري خلال المسافة التي تفصل بينه وبين أحمد.. أخذ يحيّي كل من يراه أمامه، لكن ليست تحيات عادية، بل إنها من نوع: ((صباح الخير يا عادل، ألم تسترد مفتاح سيارتك من والدك بعد؟ هل لا زال يحرمك منها لأنك صدمتها؟!)) ثم يطلق ضحكة طويلة وساخرة كي ينتقل على الضحية التي بعدها: ((كريم! يا ليتك كنت هنا البارحة.. أخذت البنات تطلق دعابات لها شأن بأذنيك، كانوا يقولون أنك تحلّق بأذنيك من المدرج عندما يُعلن عن إختبار مفاجئ!)).. يرمقه كريم في ضغينة مكنونة، إن أمثال صبري لو مرّوا أمام المرآة فلن يترددوا لحظة في التنمر على أنفسهم..

- أترك الناس في سلام!

- لا تتكلم أنت يا فيودور ماخنوف..

تابع قائلاً:

- لقد ضاعت منك المحاضرة الأولى.

جال أحمد ببصره في الأفق قائلاً:

- نعم أعلم.

- السهر مرة أخرى.. أول الدفعة يتزحزح من على القمة!

سأل أحمد مستهزئاً:

- ومن الذي يجرؤ؟

أشار صبري إلى شاب يرتدي زي متناسق الألوان كأنه في مدرسة، ويمشي بجانب المعيد ممسكاً بحقيبة يده..

نظر إليه أحمد مطولاً، ثم قال:

- لا أعرفه.

- ملك التودد، هؤلاء أصحاب الكلمة الطيبة هم الناجحون دائماً..

- ليس مهماً..

صمت أحمد قليلاً كأن هناك شيء مهم يراوده، ثم قال بينما شرد بعينيه:

- أتتذكر عندما أخبرتك أن أبي عاد في يوم من كليته والذعر في عينيه، وكان حائراً لدرجة أنه نسي أن يوصد باب المنزل.

أخذ صبري يحاول التذكر وهو يرشف فنجان القهوة الذي أُعد له، ثم قال في لامبالاة:

- لا أتذكر شيء..

حك أحمد ذقنه وهي يروي:

- في ذلك اليوم.. عاد أبي من العمل والذعر في عينيه، شارداً وغير مركز في ما يحدث حوله، لم يوصد باب المنزل، وأتذكر أن عم وليد قد أعطاني مفتاح السيارة قائلاً أنه وقع من أبي، عندما سألته قال لي شيئاً غريباً..!

استطرد يقول:

- قال أنه رأى مهرجاً بين الطلاب في محاضرته، كان صامتاً مبتسماً، لكن كان كذلك يبكي دماءاً من عينيه، اعتقد أنها مزحة من أحد الطلاب المشاغبين، لكن عندما نهر أبي هذا الشيء لم يجبه كأنه صنم، كان الطلاب يسألونه ما الذي ينهره بالضبط، فقال مشيراً لهم إلى مكان هذا المهرج، لكنه فجأة اختفى.. أقسم الطلاب أنهم لم يروا شيئاً، سألهم العميد بعدما أخبره بي، فأقسموا مجدداً أنهم لم يروا أي مهرج في المدرج، قضى أبي اليوم كله في سؤال رجال الأمن والطلاب الذين يقابلهم في الكلية، ومراجعة كاميرات المراقبة، وحتى العمال أخذ يسألهم.. جن أبي ولم يفهم أي شيء، حاول إقناع نفسه أنها هلاوس، لكنه كان متأكداً.. وقبل أن ألحظ حالته وجدته أتى من تلقاء نفسه يروي لي وقال كل شيء.. حينها كنا نتناول الغداء على طاولة الطعام.

استحالت ملامح صبري إلى إبتسامة تتفيه:

- صدقني لا أتخيل.. كيف استطعت أن تكتم ضحكتك وأنت تستمع له!

رمقه أحمد في جدية كان من شأنها إحراج صبري وجعله يسمع صامتاً.

- مر حوالي شهران ونصف أو أقل تقريباً.. كان هذا في أول أسبوع في شهر يناير.

تابع أحمد:

- ليس بخيراً.. أنا أعلم ذلك؛ يشرد كثيراً ويصطنع أنه نسي الأمر أحياناً ولا يرغب في الحديث عنه، زاد شعوري بهذا في الفترة الأخيرة، أنا قلق عليه جداً..!

- لا أعلم يا أحمد، ربما هي هلاوس.. لست خبيراً نفسياً لكن هذا أدق تحليل، وهو كذلك منطقي؛ إن أباك يُجهد كثيراً وخصوصاً أثناء تقدمه في العمر، وربما يكون حلم يقظة قد راوده، وربما يكون قد شاهد شيئاً مماثلاً على التلفاز.. فلديك مثلاً أفلام مثل: ((الشيء)) و((باتمان)) و((الجوكر 2019)).. حتى أنني تذكرت أول وآخر فيلم ذكرتهما، إن الأحداث مشابهة بعض الشيء، مهرج ذو شكل غريب ومخيف ولا يراه أحد سوى الضحية، وهذا موجود في فيلم ((الشيء))، وكذلك يبكي دماً ويبدو عليه حزن رغم أنه مبتسم، وهذا مطابق تماماً لشخصية ((أرثر)) في فيلم ((الجوكر 2019))، هذا ما أراه يا صديقي بصراحة..

فكر أحمد في الأمر، ربما هذا منطقي، إن والده يقضي بعض الوقت أمام التلفاز بينما يجلس هو بمفرده في غرفته يذاكر، من المرجح أن يكون قد مرت عليه أحد هذه الأفلام، وهناك أعمال فنية أكثر لم يذكرها صبري بطلها مهرج مخيف..

قاطع صبري أفكار أحمد يقول بصوت خافت يدل على حرج مما سيقول:

- وأيضاً إسمح لي أن أذكرك بمدى تأثره بوفاة والدتك - رحمها الله - أنت من أخبرتني بهذا من قبل.. من الممكن أن يكون هذا الحدث العصيب الذي اقتحم حياته دون مقدمات ترك فيه أثراً سلبياً.. أنا أتأسف لقول هذا..

رفع أحمد يده لصبري بمعني ألا ينحرج، وأخذ يتفكر مجدداً.. ربما زال هذا الكلام من قلقه الكثير.

* * *

ألقى كامل التحية على رجال الأمن الذين حيوه بحفاوة وإحترام كأنه رئيس الجامعة، دلف إلى غرفة الأساتذة حاملاً حقيبة اليد خاصته، فجأة وجد على الباب صديقيْه ((رشاد)) و((عبد الله)) الأستاذيْن بكلية الزراعة معه، رشاد السمين القصير ذو الشعر الناعم الأبيض، والذي يرتدي بذلته الكحلية المعتادة، رشاد خمسيني

تطغى عليه سمة الفضولية، ولكن هذا لا ينفي أنه طيب القلب والمعاملات خصوصاً مع الطلاب.

وعبد الله صديق رشاد من أيام الدراسة، من صفاته أوقفه رشاد والإبتسامة على وجهه:

- ليست مواعيدك هذه يا دكتور!

- لقد تعطّلت السيارة في منتصف الطريق، حمداً لله أنني لم أتأخر أكثر من هذا..

- حمداً لله.

نظر رشاد وعبد الله لبعضهما، فقال عبد الله في نبرة رجاء:

- لم تقل لنا.. أرجو أن تكون قد قررت.

ضيّق كامل عينيه متعجباً، فقال رشاد ليذكره:

- لقد إتفقنا البارحة على زيارة الدكتور فؤاد سرور، هل فكرت في الأمر؟

- نعم تذكرتُ!

تابع متحيراً:

- لا أعلم يا جماعة.. ربما لا تتسنى لي الفرصة؛ فأنتم تعلمون..

قاطعه رشاد في إصرار:

- أنا أعلم مشاغلك جيداً.. ونقدر نحن الاثنان هذا، لكن من المؤكد أنك وصلتك حالته النفسية السيئة، والسبب..

أكمل عنه كامل قائلاً:

- بسبب ابن عمه الكاتب، سبق وعلمتُ أنه كان صديقاً مقرباً له بالإضافة للقرابة، الله معه يلهمه الصبر والسلوان..

- آمين يا رب..

سألهما كامل:

- فليذكرني أحدكما كيف توفى.. لا أتذكر جيداً.

قال عبد الله:

- توفى بأزمة قلبية.. كان يعيش بمفرده في شقة بوسط البلد، لم يسعفه الوقت لطلب المساعدة، وهذا ما حدث.

- نعم لقد تذكرتُ.

صمت كامل قليلاً، ثم قال وكأن هناك ما يحيره:

- لقد رأيتُ هذا الكاتب من قبل على التلفاز في لقاء صحفي.. إنه صغير في السن، كان يبدو أن صحته جيدة، وكذلك لقد قابله ابني أحمد في عدّة ندوات ثقافية.. وعندما سمعنا بخبر وفاته أخبرني أنه لا ينم إلا عن حياة طويلة سوف يحظى بها.

ثم ضحك باسماً يقول:

- وكان من رأيه أن العزوبية تعزز هذا..

ضحكا الاثنان بتحفظ، وقال رشاد مؤيداً:

- هذا ما فكرتُ به أيضاً، كنتُ أشعر أن هناك سر ما في الأمر.. ومن خلال رؤيتي لفؤاد في جنازة الأستاذ مروان، استطعت أن استشفي أن هناك شيء ما يخفيه، لكني لم أطل التفكير، أنت تعلم الأدباء والمشاهير.. نهاياتهم دائماً غريبة، منهم من ينتحر ومنهم من يصاب بالأمراض في سن صغير، في أول الأمر وآخره إنه قدر الله.

تأمل عبد الله ساعة هاتفه ليجد أن محاضرته على وشك البدء، فقال مسرعاً:

- الأهم الآن هو الزيارة التي أعددناها، هل ستأتي يا دكتور كامل أم لا؟

فكر كامل قليلاً، ثم أجاب بعدما لم يجد مفراً:

- لا مانع من هذا.. إنه ثواب كبير عند الله، لعل نفسيته قد تتحسن كما تقولون، عموماً سوف أنهي محاضراتي وأنتظركما هنا..

وأشار إلى غرفة الأساتذة، ودّعوا بعضهم وذهب كل منهم إلى شؤونه..

* * *

عاد كامل وأحمد إلى المنزل بعد يوم قد مر سريعاً على غير المعتاد، جلس كامل على طاولة الطعام مشبكاً أصابعه تحت ذقنه وماططاً شفتيه، يرمق أحمد في غضب مصطنع يخفي به ضحكة ساخرة كادت أن تهز الشقة، بينما الآخر يقف أمامه ويبتسم إبتسامة من شأنها إستفزاز أبيه لكن يبدو أنه فشل، تنفس كامل الصعداء، ثم قال:

- كل يوم على نفس الموّال..

رفع أحمد كتفيه قائلاً:

- إنه ليس خطأي! أنت تشتري الحاجيات.. أنا أطبخ، الإتفاق بسيط، لكن يبدو أن هناك من يخل به.

- لقد نسيت.. إنها ورطة.

ضحك أحمد مشيراً بأصابع الإتهام لأبيه:

- أنت المذنب.

انفجر كامل في ابنه ضحكاً وهو يقول:

- وأنت زوج المستقبل، هل تعلم ما الذي ستفعله زوجتك حينما تنسى شراء الحاجيات، سوف تقول في لامبالاة: ((الجبن في

الثلاجة، والخبز بجانبه.. تصرّف!))، تدرب على هذا الموقف الحرج مستقبلاً.

ثم تابع:

- المشكلة واضحة..

وأكملا في صوت واحد:

- نريد أن نأكل!

أردف كامل وهو يطرق على بطنه:

- حل المشكلة.. لدي ميعاد بعد ساعتين، أليس الجيل الجديد قادر على صنع المعجزات؟! أرني يا فتى..

نظر الفتى لأبيه في تحدٍ مضيقاً عينيه، ثم فجأة دق جرس المنزل، تعجب كامل من إستمرار نظرة الفتى والذي أوشك على الضحك، فقال له:

- هيّا أنظر مَن بالخارج، لننتهي من موضوع الغداء.. نريد طعاماً.. طعاماً يا أحمد..

خطّى أحمد خطوتين إلى الباب في ثقة وفخر لم يفهم كامل مغزاه، لم يستطع كامل أن يرى من بالخارج، كان أحمد يحجب الرؤية، لكنه لاحظ أنه يُخرج نقوداً من محفظته ويأخذ شيئاً ما من

الذي بالخارج، ترقب كامل هذا الموقف الغريب وانتظر نهايته مستغرباً..

وبعد دقيقتين، جاء أحمد حاملاً كيسين كبيرين، عليهما شعار مطعم مشويات شهير، جاء وبسمة الإنتصار على وجهه، سأله كامل:

- ما هذا؟

أجاب في نبرة تعالٍ:

- إنه الطعام.

- متى؟ وكيف؟!!

- أثناء ما كنت ترمقني وتنتظر الطعام أمسكتُ بالهاتف وطلبت هذا الطعام، خدمة التوصيل للمنازل.

نزلت الجملة الأخيرة على مسامع كامل كالصاعقة، انفجر غاضباً بينما أحمد يُخرج ما في الكيسين على الطاولة أمام أبيه:

- ومنذ متى ونحن نفعل هذا؟!

- نحن جوعى الآن.. ليس هناك وقت للّوم والشجار.

أردف وهو يفتح عبوة طحينة ويتذوقها في نهم:

- ألا ترى الجمال!

أخذ كامل ينظر للطعام متسع العينين، ثم أخذ من أحمد الكيس خاصته وهو يقول في غيظ:

- سوف نتحاسب لكن في وقت آخر.. هل هذا شيش طاووق؟

* * *

تقابل كامل ورشاد وعبد الله تحت عمارة كامل وكان رشاد بسيارته ومعه عبد الله، ركب كامل في الوراء، قال رشاد ناظراً لكامل عبر المرآة:

- لقد كنت متردداً في الصباح.

- لا أرى مانعاً من الذهاب.. د. فؤاد صديق قديم يستحق كل خير، ونسأل الله الجزاء الحسن عن هذا.

عقّب عبد الله بصوت مسموع:

- ونعم بالله.

أدار رشاد المفتاح قائلاً:

- فلنتوكل على الله.

انطلقت السيارة تجتاز شوارع القاهرة التي زينتها إحتفالات الناس بإقتراب شهر رمضان، عُلقت الفوانيس المنيرة المبهجة والأوشحة

التي كُتبت عليها عبارات التهنئة، لمْ يتبق سوى خمسة يوماً بحد أقصى، ترتاد أغاني رمضان المحفورة في القلوب، والتي بعثت في أفئدة الثلاثة ذوي البزات داكنة اللون إحساساً جيداً، خُيّل لهم أنهم يشتمون رائحة نهار رمضان، ويستمعون لقرآن المغرب بصوت الشيخ ((محمد رفعت))، ويتذوقون حلويات ما بعد الإفطار الشهية (ما عدا رشاد الذي منعه طبيبه من تناول السكريات)..

لقد مر الوقت سريعاً ولم يشعروا بالطريق ولا بالزحام حتى وصلوا إلى منطقة السيدة زينب.

وجد رشاد مكاناً جيداً لسيارته، سألهم كامل وهو يتأمل المنطقة ذات الكثافة السكانية:

- لقد نسيت أين منزله بالضبط.

رد عبد الله:

- وأنا كذلك.. لقد مر زمن.

قال رشاد وهو يبحث عن رقم فؤاد في هاتفه كي يتصل يسأله:

- لقد نصحته بعدم الإنتقال من المهندسين، لكنه تحجج بوصية والدته أن يسكن في المنزل القديم - هو وعائلته – بعد وفاتها، لكني أخمن أن السبب الحقيقي هو قُرب هذا المنزل القديم من العيادة خاصته..

إتصل رشاد بفؤاد وأخذ يحدثه بينما لمْ يقدر كامل وعبد الله سماع المحادثة، لكنهما فهما ردود فؤاد من ملامح رشاد وهو يحدثه، انتهى رشاد من مكالمته وقال لهما:

- لقد أخبرته بمكاننا بالضبط.. وسوف يأتي ليأخذنا إلى المنزل.

ثم أردف:

- صوته ليس بخير يا صديقيْ.. لاحظا هذا.

أومأا إيجاباً له، وبعد ربع ساعة وجدوا ثلاثتهم رجلاً أربعينياً يرتدي جلباباً أبيضاً نزيهاً يقترب منهم، ذو شعر كثيف، ولحية غير مهذبة، ملامحه طغت عليها الهموم وقد أخذتها مأواً ومسكناً، عينيه ميتتان ناعستان، وإبتسامة قد جاهدت في الخروج من هذا الكيان الكئيب، لكنها لم تغير شيئاً من إنطباعهم عن حالته المزرية، هذا هو فؤاد..

صافحهم ثلاثتهم لكن كل منهم أصر على عناقه في حميمية، ولا مانع من سرد بعض الذكريات القديمة التي جمعتهم معاً - في تحفظ - والتي لا تتعدى مدة العناق لكل منهم..

علم كامل ما سبب إيماءات رشاد الغريبة أثناء محادثة فؤاد في الهاتف، نبرة صوته لمْ تكن المعتادة، رغم أن كامل ليس وطيد العلاقة مع فؤاد مثل رشاد وعبد الله، لكن المواقف التي جمعته بفؤاد جعلته يشعر بأنه صديق صدوق لا يُنسى مع مرور الوقت وليس

مجرد معرفة عابرة، لذلك أحس بتغيير جذري في حالة فؤاد النفسية.

والسؤال الذي كان يراود كامل مليّاً منذ عرض عليه رشاد وعبد الله زيارة فؤاد: ((هل يستحق الأمر كل هذا؟))، يقصد أن من الطبيعي أن يحزن المرء عندما يتوفي أحد أقاربه، خصوصاً إن كان قريبه الوحيد مثل حالة فؤاد، لكن كلنا سنموت! وهذا أمر لا نقاش فيه، لكن كان كامل يشعر بمبالغة في مشاعر فؤاد نحو هذا الأمر.. وأخذ يتساءل في نفسه أثناء ما أخذهم فؤاد ليوصلهم إلى منزله متخللاً الشوارع والأزقة:

((هذه المشاعر والملامح لا تنم عن حزن عادي لوفاة عزيز عليك.. إنما هناك نوع من تأنيب الضمير.. الشعور بإثم تم إرتكابه، إن كنتُ مكانه.. فلن يصل بي الحزن لهذه الدرجة إلا عندما أكون قد قتلتُ مروان بنفسي، أو أن لي يد في وفاته، وكانت هذه أول التحليلات أو التفسيرات، والثاني أن فؤاد بهذه المشاعر - التي قد تكون مختلقة - يخفي شيئاً لكن ليس جريمة ارتكبها، إنما يكون هذا على الأرجح سببه التظاهر بالحزن على ابن عمه الكاتب المشهور، حينها يكون قد دمر بعض ظنون الناس التي كانت تحسب أن فؤاد يغار من ابن عمه لشهرته ومكانته في المجتمع، لكن هذا تحليل ضعيف بالنسبة إليّ؛ إن فؤاد شخصية على درجة من التعقل والرجاحة والثقة بالنفس تجعله يوقن دوره في المجتمع وأهميته

وعلمه حتى لو لمْ يكن كل تلك المزايا قد أهداه شهرة إعلامية مثل مروان..))..

ولمْ تولد كل هذه التساؤلات والتحليلات والتخمينات في ذهن كامل إلا بسبب شعوره بإفراط في حزن فؤاد البالغ على وفاة مروان لمْ يفهم سببه بعد، لكنه يشعر أن هناك شيء ما غير معلوم، سر سوف يسعى لكشفه في سرية أكبر دون أن يلحظ أحد أي شيء.. توقف عن تساؤلاته ثم قال لنفسه متعجباً:

- لمْ يتكون لدي شعور الفضول منذ عقود، والآن علمتُ من أين جاء أحمد بهذا المكر والفضول!

وبعد ربع ساعة من الترجل بين هذه البيوت والشوارع المتفاوتة وصلوا إلى منزل كبير قديم يقبع بين بيتين يشبهانه في الشكل قليلاً، كان مكتوب عليه بطلاء أبيض عتيق لمْ يتبق منه سوى ما يكفي لقراءة الكلام: ((الحاج/ سرور حسني كرم الله والحاجة حرمه.. حجّا بيت الله وزارا قبر النبي))، ورسمة الكعبة وكف أحمر باهت مطبوع على الحائط..

قال فؤاد وهو يفتح الباب متقدمهم:

- تفضلوا يا جماعة.. زدتم المكان نوراً..

ودلف إلى داخل المنزل، بينما توقف رشاد على الباب وهو يهتف:

- يا رب يا ساتر!

فقال فؤاد له وهو يفتح باب جانبي بعيد عن الصالة:

- زوجتي والأطفال عند منزل والدها..

كانت له نبرة غريبة وهو يقول هذه الجملة، استشفوا منها أن هناك مشاكل بينه وبين زوجته.

لاحظوا أن المنزل غير مرتب بطريقة ما، ولاحظوا بساطته أيضاً.. وتبعوا فؤاد داخل هذه الغرفة التي دعاهم لدخولها، كانت هذه غرفة مكتب خاص بفؤاد، إن شكلها وأثاثها ليس لهما علاقة بباقي المنزل، كأنك دخلت مكتب في أحد القصور الملكية، الأثاث رفيع المستوى ذهبي اللون لاسيما المكتب الذي طُلي باللون البني، طلاء جدران الغرفة يميل للون الأحمر مع بعض الصور الطبيعية المبروزة، والإضاءة صفراء اللون ليست ساطعة لكنها تكفي للرؤية بوضوح بالتأكيد مثل مطاعم وسط البلد، أمام المكتب كرسيين، وهناك أريكة جميلة الشكل ومريحة أيضاً، وبجانبها كومود ليس له مكان فعلياً رغم أنه لا يخل بالشكل العام، ودولاب كبير بنفس اللون البني يحمل عدة تحف قديمة هي الوحيدة التي خالفت الجو العام للغرفة؛ حيث بدا أن التحف هي بعض الأطباق الزجاجية والصواني والنياشين القديمة..

جلس رشاد وعبد الله على الكرسيين أمام فؤاد، وجاءت الأريكة من نصيب كامل الذي كان مواجهاً فؤاد..

رحب بهم فؤاد واعتذر عن عدم ترتيب البيت وتحجج بعدة حجج.

بعدما قدّم الثلاثة العزاء وأخذوا يواسون فؤاد ويدعون له بالصبر والسلوان، أخذوا يتسامرون على أمل أن تتحسن حالته النفسية، بينما حاول فؤاد جاهداً على تغيير الموضوع لكن دون جدوى، مر بعض من الوقت من الحديث الحسّاس عن الموت والصبر وكامل يراقب تعبيرات وجه فؤاد في صمت وشبح إبتسامة على وجهه.

بدأت وصلة مواضيع مختلفة تنفتح بين رشاد وعبد الله وفؤاد، وذلك لشدة قربهم منه عن كامل، قام فؤاد بعد برهة يسألهم ماذا يشربون، فأصر رشاد وعبد الله أن يذهبا معه إلى المطبخ ليساعداه في إعداد أيّاً كانت المشروبات، وفي نفس الوقت إكمال وصلة الثرثرة التي كان يتلقاها فؤاد من رشاد وعبد الله - وخصوصاً رشاد - بنصف إبتسامة وإيماءات توحي بشدة الإهتمام بأحاديثهما، وفعلاً دلفوا إلى المطبخ بينما ظل كامل جالساً على الأريكة متصنعاً الإهتمام بالهاتف.

أسند ذراعه اليسرى على الكومود ووضع يده تحت خده في سئم، أحس بصوت يشبه الورق، أخذ يبحث فلم يجد شيئاً، فكر قليلاً ثم لاحظ أن هناك قطعة قماش لها نفس لون الكومود موضوعة عليه بطريقة لا تجعل أحد يلاحظ، أو أنها مصادفة لا أكثر، وهو اعتقد هذا بسبب روح شارلوك هولمز التي تحوم حوله الآن..

أزاح قطعة القماش والتقط ما تحتها، كان هذا مظروف ورقي مكتوب عليه: ((من مروان عبد الحليم إلى د. فؤاد سرور، وتُسلّم له

إذا حدث لي أي مكروه))، فكر في أنها قد تكون وصية كما يفعل الأغنياء والمشاهير، فتح المظروف ليجد مجموعة من ورق الطباعة المطوية مكتوب عليها، في حذر وتلفت حوله فتح الصفحة الأولى وأخذ يقرأ..

((إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش صامتاً، فالصمت إثم.. ربما يعتقد البعض أنه بذلك يأمن، لكن هذا الآمان لن يدوم، وضريبته الإنفجار غيظاً في أحد الأيام، ربما يعتقد البعض أنه بذلك يأمن، لكني لن لا أعتقد هذا، لو لمْ أتكلم فسوف يحدث لي شيء؛ فأنا لم أُخلق للصمت..)).

زاد إهتمامه أكثر بإكمال القراءة، أخرج رأسه من الغرفة في حذر ليجدهم لازالوا في المطبخ يثرثرون، لذا فأكمل القراءة بينما راوده شعور غريب للغاية.

((كانت لديه نفس النظرة التي..))..

وفجأة سمع صوتهم يقترب من غرفة المكتب، خشي أن يروه وفي حركة سريعة طوى المظروف ووضعه في جيب بذلته، ثم وضع قطعة القماش مكانها في هدوء، ثم اعتدل في جلسته ودقق عينيه في هاتفه ليبدو كأن جلسته لمْ تتغير منذ رحلوا.

جاءوا ثلاثتهم وكان عبد الله ممسكاً بصينية قديمة الشكل عليها أربعة أكواب شاي بالإضافة إلى سكرية وعلبة شاي حمراء اللون، كان رشاد لايزال ممسكاً بأذني فؤاد المسكين، والذي أخذ - من حين

لآخر – يتحسس رأسه الذي امتلأ وفاض بالكلمات، جلسوا مجدداً فوجد كامل – الذي تظاهر بالإنشغال بالهاتف – فؤاد يقول له:

- منور يا د. كامل.

- ها! بنورك يا د. فؤاد.

ابتسم فؤاد إبتسامة لم يدرك كامل كنهها، فزاد إرتباكه إعتقاداً منه أنه كُشف بشكل ما، إنها أول كلمة من فؤاد تكون مُوجهة له، أول إبتسامة في الجلسة كلها وربما أول إبتسامة منذ وفاة مروان..

أعطى عبد الله كل منهم كوبه، وأخذوا يحتسونه في هدوء أخيراً، وكان كامل يتابع تعبيرات وجه فؤاد خلسة أثناء شرفه للشاي.

وبعد وقت ليس بالطويل.. نظر كامل في ساعة يده ليجدها قد قاربت العاشرة، ووجد رشاد وعبد الله لايزالوا جالسين وكأنهم لن يقوموا أبداً، نهض كامل وعلى وجهه نصف إبتسامة ليستأذن في الرحيل، شكره فؤاد قائلاً:

- لا تعلم كم أن زيارتك غالية جداً يا د. كامل، لقد اقتربتُ من التحلل وحدي في هذا المنزل..

ابتسم كامل:

- لا عليك يا د. فؤاد إننا من فرحنا بزيارتك، وطبعاً لا أحتاج أن أخبرك أنك إذا احتجت شيئاً فسوف تتصل بي..

- بالطبع يا سيدي.. ما أصابك مكروه.

ظل رشاد وعبد الله جالسيْن فعلم كامل أنهما لن يقوما بعد، اصطحبه فؤاد لباب المنزل وودعه كامل ثم رحل..

ثم أسرع كامل إلى المنزل بعدما استقل سيارة أجرة، كان متلهفاً لقراءة هذه الوصية، وكان بداخله مزيج من المشاعر، خوف وقلق وحماس وحيرة.

كان يفكر في شيء شغله لكنه لمْ يتأكد منه بعد، وعندما وصل إلى المنزل، تسلل عبر الردهة إلى غرفته مارّاً بغرفة أحمد ليجده مستيقظاً يتحدث في الهاتف وأمامه جهاز اللاب توب خاصته، حمد الله أنه لم يلحظه جيداً.. دلف كامل إلى غرفته وانتزع حذائه، جعل الباب مواربا وأخرج أشياءه من جيب بذلته عدا المظروف، وفجأة وجد أحمد يفتح باب الغرفة ممسكاً بمجموعة من الملابس قائلاً:

- أبي.. أريد هذه البذلة كي أغسلها، سريعاً من فضلك.

قال كامل متهدجاً:

- انتظر.. لحظة.

- هيّا يا أبي!! تبقت ملابس كثيرة..

ثم أشار لمحفظة أبيه وهاتفه وهو يقول:

- أشياؤك معك ولمْ يبتق شيء.

كان الفتى مصرّاً ومحتداً، فلمْ يجد كامل جدوى من التصميم إلا إثارة الشكوك، أعطاه البذلة والبنطال والقميص، ثم خرج أحمد وبين يديه كومة الملابس متجهاً إلى غرفة الملابس حيث الغسالة، جلس كامل على السرير يائساً وأخذ يفكر في طريقة لإسترداد المظروف قبل أن.. يذوب في المياه والصابون!!

لم يتبق وقت.. يلزم تسلل سريع ومُتقن.

فتح كامل الباب وأخرج رأسه يراقب أحمد حتى خرج من غرفة الملابس، وفي حركات خفيفة وسريعة ترجل كامل على أطراف أصابعه إلى غرفة الملابس، ثم فتح الغسالة وأخرج المظروف من جيب البذلة، ثم عاد سريعاً إلى غرفته وأغلق الباب، جلس على السرير وأخرج الوريقات من المظروف، ثم أخذ يكمل قراءة:

((كانت لديه نفس النظرة التي تنفذ من نظارته السميكة، كأنه يريد أن يسبني أو شيء من هذا القبيل، نظرة تسبق قوله المعتاد: ((هل جننت يا مروان؟))، إنه في الحقيقة ليس طبيباً نفسياً، لذلك كنت أشعر بضيقه عندما أطلب مقابلته، فحينها - فعلياً - أكون قد دمرت جدول مرضاه ووقته وكل شيء، لكني موقن أن هذا هو واجب ابن العم لابن عمه، وأيضاً لإنني سوف أُجن حقاً إن لم أبوح لأحد..)).

ثم فجأة وجد كامل الباب يُفتح ومن ورائه أحمد يقول:

- عم وليد وسكان العمارة يريدونك في إجتماع، إنه أمر مهم ويحتاجونك بشدة..

قام كامل متردداً، تكاد السبة تخرج من الأستاذ الجامعي المرموق، وضع المظروف تحت الوسادة، وأغلق الضوء والباب وخرج متأففاً..

* * *

عاد كامل إلى المنزل بعد ساعة كاملة من (غسيل زوجة الأستاذ عمر) و(تعطّل المصعد) و(وضع السيارات أمام بوابة العمارة)..

ضاع الوقت في كلام تافه وليس لكامل علاقة به سوى أنه أستاذ مهذب وأحد أقدم السكان وأكثرهم إحتراماً ومكانة إجتماعية.. مجرد حضوره وسط كل هذا الهراء يُعتبر توثيقاً للحلول التي ستطرح، يقترح أحد السكان رفع التكلفة الشهرية، ويسأل كامل عن رأيه فيقول:

- ها! نعم حل جميل.

ويقترح آخر وضع صفائح أمام البوابة حتى لا يضع أحدهم سيارته، فيقول كامل:

- هذا جيد جداً.

وعندما نظر في الساعة وجدها الواحدة، فخلد سريعاً إلى النوم إرهاقاً على وعد - بينه وبين نفسه - أن يكمل قراءة الأوراق غداً إن شاء الله..

* * *

تعجب فؤاد من إختفاء مروان المفاجئ، تقريباً آخر مرة كان قد حادثه فيها عبر الهاتف كانت قبل حضوره لمؤتمر أو ندوة أو شيء كهذا، إتصل به عدة مرات بعدها لكنه لمْ يجب على ولا مكالمة!

راود فؤاد قلق غريب على مروان، خصوصاً أنه كان له فترة لمْ يتحدث معه عن موضوع المهرج الذي يراه، لذا قرر فؤاد أن ينتهي من مواعيد العيادة ويطلب من زوجته إعداد وجبة من التي يشتيها مروان.

وفعلاً في مساء أحد الأيام أخذ فؤاد الطعام وذهب إلى شقة مروان، أخذ يطرق الباب لنصف ساعة بلا جدوى، تسلل القلق إلى فؤاد مرة أخرى، حاول الإتصال به لعلّه يكون بالخارج، لكن الهاتف مغلق هذه المرة، نزل فؤاد إلى البواب وسأله عن مروان، فأخبره الآخر أنه لمْ ير مروان منذ حوالي يومين ولمْ يخرج من شقته طوال تلك الفترة.

قال فؤاد ناهراً:

- وكيف تتركه كل هذه المدة؟!

- إن هذا هو المعتاد من الأستاذ مروان، عادة ما كان يأمرني بألا أزعجه لمدة أسبوع لاسيما إن طلب مني هو شيئاً ما، ويومين هي فترة قصيرة بالمقارنة مع الأوقات التي كان يتغيب فيها في شقته.

وفي نبرة شدة طلب فؤاد من البواب أن يأتي معه ليكسرا الباب.

وقفا أمام الباب وأخذا يبتعدان ويعودان بكتفيهما عدة مرات، اقترح البواب أن يستدعي النجار لكن فؤاد لم يأبه بكلامه واستمر في ضرب الباب في إرتباك وعدم تركيز بما يقوله البواب.

طلب البواب العون من أحد السكان وفعلاً كُسر الباب منفتحاً على مصرعيه، وفجأة تقدم فؤاد في خوف ليجد مروان طريح الأرض غالقاً عينيه، هرع فؤاد إليه مذعوراً وتهاوت أكياس الطعام من بين يديه، ركع فؤاد على الأرض وأخذ يكلم مروان الذي بدا أنه مغمى عليه، تحسس شريانه السباتي ليجد أن النبض متوقف، فحص العلامات الملونة على جلده، أخرج كشاف هاتفه ووجهه نحو عينيه، لكن بلا فائدة.

لم يستطع فؤاد تماسك نفسه، أخذ يبكي وتنهمر الدموع من عينيه، كان البواب يراقب المشهد جاحظ العينين غير مصدق ما يراه، بينما ذهب أحد السكان ليستنجد بالإسعاف عبر هاتف منزله، تجمعت السكان حول باب الشقة يشاهدون الموقف المخيف في صمت، فؤاد يضم مروان الشاحب إلى صدره وينادي عليه باكياً..

هتف أحد السكان:

- أليس هناك طبيب هنا؟!

أشار البواب إلى فؤاد الجاثي على ركبتيه والذي تحشرج صوته وزاد نحيبه، وبعد برهة جاء رجال الإسعاف ثم فحصوا جسد مروان ليقولوا أنه رحل، جاءوا ليحملوا الجثة من بين يدي فؤاد، لكن بدا عليه الرفض صامتاً مما دفعهم لأخذه رغماً عنه، وساعدهم السكان لإبعاد فؤاد عن مروان..

ثم أخذ الرجال الجثة ووضعوها على السرير المتحرك، وأخذوا يبتعدون عن فؤاد المنهار والذي حاول السكان تهدئته والإمساك به كي لا يعطّل رجال الإسعاف..

ثم قال أحد السكان:

- بالتأكيد ارتجع سمّاً.

وقال آخر:

- لاطالما حسبتُ أن نهايته ستكون مماثلة.

وقال آخر:

- إنه يذكرني بـ ((إرنست همينجواي))..

- أو ((داليدا)).

- هؤلاء غلبت عليهم الشهرة والوحدة لتجعلهم ينهون حياتهم بتلك الطرق..

* * *

لمْ يجد كامل فرصة لقراءة ما بالمظروف، وكل لحظة تمر يزداد شوقه وحماسه وقلقه ورغبته، خصوصاً بعدما زادت العوائق التي تواجهه كلما أراد الإطلاع عليها، وهكذا يثبت فضوله وعناده أكثر وأكثر.

وعندما عاد ليلاً غلبه النوم، لكنه راودته الأحلام بخصوص هذا الأمر..

وعندما استيقظ صباحاً، لمْ يضع وقتاً، ارتدى ملابسه وذهب فوراً إلى الجامعة حتى أنه نسي أن يوقظ أحمد.

دخل المحاضرة خاصته وجلس على كرسيه، تأكد من وجود المظروف لكنه بالتأكيد لا يستطيع ترك المحاضرة والطلاب وقراءة الوصية، سوف يكون حينها محط إنتقاد وهو المتفاني في عمله طوال حياته، لذا قام ليشرح مخططاً أنه سينتهي بسرعة من هذا، وفعلاً عندما وقف أمام السبورة كتب العنوان، لكنه تذكر شيئاً.. الغياب، من عادته أن يأخذ الغياب قبل أن يبدأ الشرح، وإن لمْ يفعل فسوف يكون حينها محطاً للنقد أيضاً.. لذا جلس مرة أخرى وطلب

من أحد الطلاب أن يكتب الحضور سريعاً، لكنه قرر أن يبدأ لأن هذا سيأخذ وقتاً، أخذ يشرح بسرعة لمْ يعتدها الطلاب عليه من قبل، لكن هذا بالنسبة لهم مصلحة لا أكثر..

وعندما انتهى من الشرح، جلس بعدما طلب فنجان قهوة، جلس ليحتسي قهوته بينما يستأنف القراءة مجدداً، وما إن بدأ القراءة حتى جاء له الطالب الذي انتهى من كتابة الحاضرين، أخذها كامل تاركاً المظروف، ثم قال بصوت عالٍ:

- من يسمع اسمه يُجب!

ثم أخذ ينادي على الأسماء وهو يراقب الجميع من وراء عويناته بعينيه الصارمتين، ثم فجأة استوقفه اسم في غاية الغرابة، كان الاسم هو ((مايك جيميري))، غريب هذا الاسم للغاية، من الواضح أنه من الأسماء الغربية، سأل كامل الطالب الذي كتب الحاضرين ليسأله عن هذا الاسم:

- من هو ((مايك جيميري)) ؟

قال الطالب وقد بدت عليه علامات التعجب إثر سماعه أيضاً لهذا الاسم الغريب:

- لمْ أكتب هذا الاسم، ليس هناك أحد في الدفعة يحمل هذا الاسم من الأساس!

اندهش كامل بدوره، أراد التأكد مرة أخرى من وجود هذا الاسم في قائمة الحاضرين، لكنه لمْ يجده كأنه لمْ يكن موجوداً، انتفض كامل في موضعه مما جعل الطالب يتعجب وينظر بدوره في القائمة:

- كما أخبرتُك يا دكتور.. ليس هناك أحد بهذا الاسم.

لمْ يرد عليه كامل، بل كان يغمض عينيه ويفركهما في غير تصديق، تركه الطالب في حيرته وحده.

ثم فجأة سمع كامل أصواتاً غريبة، من علامات محاضراته ألا يتكلم فيها أحد دون إذن، وهذا بسبب صرامة كامل ورهبة الطلاب منه وإحترامهم له، لكن هذا الصوت ليس طبيعياً..

من المستحيل أن يصدره أحد الطلاب إلا لو كان يأبى النجاح هذا العام، أو يأبى أن يحتفظ بكرامته أمام الطلاب..

لذا قام كامل ينهر الطلاب على هذا الصوت الذي يشبه الضحك، ولمْ يكن ضحكاً عادياً، بل كان ضحكاً ممتزجاً بين السخرية والبكاء والصراخ، صوت لمْ يسمعه كامل في حياته أبداً!

- مَن يصدر هذا الصوت؟

سأله الطلاب:

- أي صوت يا دكتور؟

- أتحسبونني أبلهاً؟!.. إنني أسمعه الآن ويكاد أن يثقب أذنيّ!!

فقال له أحد الطلاب المحترمين الذي يعرفهم كامل بأدبهم وإنتظامهم في المحاضرات والذي يقبل منه النقد أحياناً:

- أقسم لك يا دكتور.. أننا كلنا صامتون!

توقف الكلام في حلق كامل ولمْ يدرك ما يقول ولا ما يفعل، ثم فجأة وجد أحدهم يطرق الباب في تؤدة، نظر كامل ليجد مهرجاً يدخل المدرج بخطوات هادئة وثابتة، إنه المهرج الذي رآه من قبل، بنفس ملابسه فاقعة الألوان ووجهه الذي أخفته مساحيق التجميل، والكرة الحمراء التي وضعها على أنفه، إنه نموذج مرعب للبهلوان أو المهرج..

تصلب شعر كامل الذي تخلله الشيب، وتسمر هو واقفاً أمام طلابه في منظر مريب، فاتحاً فاه جاحظاً عينيه، يتاعب خطوات المهرج التي تحولت إلى حركات مرنة طفولية ممتزجة بين قفزات وشقلبات.

أما الطلاب فكانوا يتأملون أستاذهم الذي بدت عليه علامات الفزع، كان ينظر إلى شيء لا يرونه، هل يُعقل أنه ينظر إلى الفراغ؟!

سأله أحد الطالبات:

- هل هناك خطب ما يا دكتور؟

بالتأكيد لمْ يصدر رد من كامل، لمْ يكن هناك صوت إلا هدير الحمام وزقزقة العصافير خارج المدرج بالنسبة للطلاب، أما كامل فكان يسمع صوت ضحكات تنزع القلوب من الصدور.

جلس المهرج بين الطلاب أمام كامل مباشرة، كأنهم لا يرونه، كامل.. يريد التكلم لكن لا يستطيع، هناك ما يمنعه بشدة، لا يستطيع إنزال عينيه من على المهرج، لا يتأثر بأي تفاعل حوله، كأن الزمان والمكان قد فنيا، وتبقت منهما هذه المواجهة المرعبة..

كان المهرج يبكي دون صوت، فقط دموع تسيل كالشلال تؤثر مستحضرات التجميل من تحتها وتجعلها تمتزج لتصنع وجهاً يمكنه بسهولة جعل الأطفال يتبولون على أنفسهم حينما يرونه.

ثم أمسك المهرج طرفي فمه ومطّهما ليصنع إبتسامة مرعبة في مشهد سينمائي شهير، ظل توجس كامل وصمته أمام هذا الشيء..

زادت حيرة الطلاب وقلقهم على أستاذهم، قام أحدهم ليتفقد كامل ويبعدوه عن شروده المفاجئ..

أحياناً تأتي لحظات على المرء يتساءل فيها: هل هذه هي النهاية؟ وهل هي بتلك السرعة؟! لحظات ينذرك كل شيء فيها بالفناء.. حتى لو كنت قبلها تأكل المثلجات مع حبيبتك وتتضاحكا، وحتى لو كنت تحسب أن حياتك أطول من هذا، حتى لو كنت تخطط لحفل زفافك الذي سيقام بعد أسبوعين، حتى لو كنت تتخيل شكل ابنك الذي تترقب ولادته قريباً، حتى لو كنت تقبل يد والدتك وهي تدعو لك

بالصحة والعافية، حتى لو كنت تقف أمام شروق الشمس في تحدٍ وقوة. إنها لحظات تسبقها لحظات أخرى تشعر فيها بالإنشغال في حياتك ومشاكلك، تشعر فيها بالحب والكره والغضب والإنفعال، تضحك وتبكي وتُسر وتحزن.. وربما تنظر وتبتسم.. ثم فجأة.. ينتهي كل شيء.

المحقق.. لكن هل هو كذلك؟

يجلس على مقعد في منتزه يحوله الخُضر من كل إتجاه، السناجب تعتلي الأشجار بينما تجبو، والأطفال تلهو وتركض تحت أنظار ذويهم، وهناك عجوز قد غفا وهو يضع صنارته في تلك البركة، وهناك عجوز أخرى تشرف على إطعام جمع الحمام الذي نزل على الأرض باحثاً عن رزقه.

الشمس حارة اليوم، لذا قد استظل هذان الشابان بتلك الشجرة الضخمة..

لكن هو قد حل المشكلة دون التحرك من على المقعد الذي تستفت عليه عشرات الجرائد، لقد ارتدى قبعة رمادية اللون استقت مع معطفه وبنطاله، أخذ يقرأ في إهتمام شديد ما بين يده من الجرائد، ظل على هذا الحال لمدة ساعتين متواصلتين، هل لهذه الدرجة تحمل الجرائد أخباراً شيقة؟

فلنلقي نظرة على بعض الأخبار التي قصها من صحائفها.. كان هناك واحد بالعربية: ((العثور على جثة الكاتب والأديب المشهور في شقته إثر أزمة قلبية حادة))..

هناك واحد آخر من صحيفة مصرية: ((وفاة أستاذ جامعي بين طلابه في أحد المحاضرات، وقد أشار أحد طلابه بأن تصرفاته في آخر لحظاته كانت شديدة الغرابة))..

وعشرات الأخبار التي تحمل نفس الموضوع.. الوفاة، لكنه كان شديد العناية بقراءتها والتدقيق فيها، كان هناك عامل نظافة قد بدا عليه الإستغراب من هذا الرجل، كان كهلاً في الخمسين، طويل ونحيف يرتدي عوينات غليظة الإطار وسوداء اللون، بعض خصيلات شعره الأشقر قد تسللت من تحت قبعته، وشارب كث يزين وجهه الوسيم، يبدو أنه متأثر - بشكل كبير - بنماذج المحققين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وهذا ظاهر على ملابسه وطريقه تضييقه لعينيه، لو صبرنا عليه خمسة دقائق لأخرج من حقيبته بعض روايات ((آرثر كونان دويل))، أو((أغاثا كريستي))..

وبعد برهة ترك فيها الجرائد والصحف.. أخرج صورة لفتى وفتاة ومعهما سيدة عجوزة وأمامهم كعكة عيد ميلاد، قد دوّن في ظهرها عنوان ورقم هاتف.

حدق في الصورة قليلاً ثم وضعها في حقيبته وسط ملابس وصور الأخبار التي قصها من الجرائد، لكن للأسف ليس هناك روايات، أغلق الحقيبة مرة أخرى ثم نهض تاركاً الجرائد على المقعد، أشار لعامل النظافة قائلاً له في نبرة قد غلب عليها الغموض:

- تصرف في هذا..

رمقه عامل النظافة في إشمئزاز لكن هذا لم يمنعه من الذهاب لأخذ هذه الجرائد.

تمشى قليلاً ممسكاً بحقيبته، ثم أخرج من جيب معطفه تذكرة طيران جوي أمريكية، وكانت الوجهة إلى القاهرة، وضعها مرة أخرى في جيبه آخذاً شهيقاً عميقاً..

ثم أوقف سيارة أجرة وجلس بالداخل، ثم قال للسائق بنفس نبرته المعتادة وهو ينظر إلى ساعة يده:

- المطار من فضلك.

كان السائق ينظر له عبر المرآة، تعجب شكله وملابسه الثقيلة رغم أن الطقس ليس بارداً.. لكنه لمْ يجد مفراً من إيصال غريب الأطوار هذا.

* * *

لمْ يكن يعلم أن الطقس هنا سيرغمه على إرتداء ملابس تصلح لهذا الجحيم بالنسبة له، لذا كان أول شيء فعله عندما وصل إلى القاهرة أنه اشترى ملابس صيفية، لكن خمّن ماذا.. لقد اشترى بذلة تحمل نفس طابع القرن التاسع عشر.

ثم جلس على مقهى شعبي يفوح منه الدخان، لفت نظره صوت يتكرر كل ثانيتين، نظر بتعمق لبعض الرجال المسنين المتجمعين حول طاولة صغيرة ومنهم اثنان يبدو أنهما يلعبان شيئاً ما، اعتقد أنها شطرنج، ولمْ يتبين شكل اللعبة وأجزاءها جيداً.. لكنه استبعد كونها شطرنج، ليس من طقوس الشطرنج محاولة كسر الطاولة مع كل حركة، نهض ليتبين كنهها جيداً، ومن الواضح أن هذه التفصيلة شغلته.. دنا من الرجال وسألهم بالإنجليزية:

- ما هذا؟

رمقوه جميعاً ما عدا الاثنين الذيْن انشغلا باللعب، ثم قال له أحدهم:

- ضومنة.

فهم أنه يقصد لعبة ((دومينو)) الشهيرة، وجد أن النادل يقف ليتابع اللعبة بينما يقلب كوب شاي على صينية في يده.

فطلب منه كوب قهوة، لكن بالإنجليزية طبعاً.. كان النادل شاباً في العشرين تقريباً يرتدي نظارة ومريلة، ويبدو أنه أدرك أن هذا الرجل أجنبي..

وبعد برهة جاء له النادل الشاب ومعه فنجان قهوة، ثم طلب الفتى من المعلّم صاحب المقهى خمسة دقائق ليتكلم مع هذا الرجل، أومأ له المعلّم وهو يدخن الجوزة ويبعث دخانها في تلذذ، وجلس الفتى مع الرجل الأجنبي..

قال الرجل بالإنجليزية وعلى يقين ان الفتى لن يفهمه:

- أهلاً بك يا شاب.

قال الشاب في إنجليزية متقنة اندهش منها الرجل:

- مرحباً بك سيدي.

- يبدو أنك تتكلم الإنجليزية جيداً!

قال الفتى مبتسماً:

- نعم أنا طالب جامعي.

كادت قطرات الكافيين في حلقه الرجل أن تخنقه بعدما سمع هذه الجملة.

- غريب جداً!

- وما الغريب؟

- أقصد ما الذي أتى بك هنا؟

- إنه تحسين دخل لا أكثر.

ثم ابتسم الفتى وتابع:

- كنت أحسب أنكم في بلاد الغرب لا تفرقون بين الوظائف..

قال الرجل في حرج:

- نعم هذا صحيح.. لكني أقصد أنك في مرحلة تعليمية تحتاج إلى تركيز.

ضحك الفتى قائلاً في سخرية:

- أعتبرُها زيادة خبرة، أو فقط إشغال أوقات الفراغ.

- لماذا؟ ماذا تدرس بالضبط؟

- أنا في كلية تجارة.. قسم محاسبة.

كاد الرجل أن يسقط مغشياً عليه، لكنه استشف من كلام الفتى أن ظروفه المادية ليست الأفضل؛ لذا لم يرد أن يطيل الحديث عن هذا.. واستشف أيضاً نوعاً من الثقة والطيبة والثقافة في الفتى، وكان مصدر كل هذا هو عيناه جريئتان.. دائماً ما يرفض الحكم على الأشخاص من أول معاملة، لكن يبدو أن الأمر تغير بالنسبة للفتى.

سأله مبتسماً:

- ما اسمك يا فتى؟

- هيثم يا سيدي.. هيثم حسام الدين.

مدّ الرجل يده كي يصافح الفتى قائلاً:

- أنا براد آدامز.. من الولايات المتحدة الأمريكية.

رفع هيثم حاجبيه وأطلق صفارة من فمه، ثم سأل:

- ما غرض هذه الزيارة الكريمة؟

صمت براد قليلاً، ثم قال وهو يرشف آخر ما تبقى من فنجانه:

- سياحة..

- أنت متأكد؟

قال براد متعجباً:

- بالطبع متأكد!

ارتسمت بسمة خفيفة على وجه هيثم وهو يقول:

- سياحة بهذه الحقيبة.

نظر براد إلى حقيبته الصغيرة وهو يتساءل:

- وما بها الحقيبة؟

- لا شيء.. فقط أقصد أن هذا ليس الموسم السياحي في القاهرة، إن السياحة الصيفية هي التي بدأت منذ فترة قريبة، في بلاد مثل الغردقة وشرم الشيخ ومرسى علم..

داعب براد ذقنه وهو يقول:

- نعم هذا صحيح.. الجو هنا حار جداً، لكن أتقصد أنني أكذب؟

أنكر هيثم قائلاً:

- لا طبعاً! لكن ربما هناك غاية أخرى لكنك تأبى أن تخبرني.. عموماً هذا حقـ..

- انتظر يا فتى!

نهض هيثم ليعود إلى عمله، لكن براد استوقفه وطلب منه الجلوس مرة أخرى.

رمقه براد في إبتسامة تعني: ((يبدو أنك ذكي بالفعل.. أريد مساعدة من مثلك خلال مهمتي.))، ثم قال له:

- في الحقيقة إن هذه ليست غايتي الأساسية، لكن عِدني أن ما سأخبرك به سيكون سراً.

وضع هيثم يده على فمه، ثم قال:

- اطمئن.. قُل ما تريد واعتبر أنك لم تقله.

- حسناً.. في الحقيقة أنا محقق، لكني لا أعمل مع الشرطة.. طبيعة عملي تحتم عليّ أن أعمل بمفردي دون أن أكون تحت أنظار الناس أو الشرطة.

تابع براد وقد أخفض صوته بشكل قد لحظه المعلّم صاحب القهوة لكنه لم يعلق:

- وقضيتي هنا مثل أغلب القضايا التي عملتُ عليها، وكلها تأخذ طابع الغموض المخيف.

سأله هيثم وقد أخفض صوته بدوره:

- وما هي القضية التي تعمل عليها؟

- إنها متعلقة بسلسلة وفيات قد لاحظتها في مختلف دول العالم، وحتى في أمريكا أيضاً.. وأنا متأكد أن ما لاحظته لا يمثل سوى نسبة صغيرة جداً مما يحدث في المجمل.

قطب هيثم جبينه وزاد إهتمامه أكثر.

سأله هيثم:

- وما هي طبيعة تلك الوفيات الغريبة؟

- إنها أزمة قلبية.

تعجب هيثم من هذا الرد، كان ليعتقد أن هذا الرجل يمزح بإجابته.. لكنه أدرك جيداً أن مثل هذا الرجل الخمسيني يعلم ما يقول جيداً.

- أعذرني.. لكن ما هو الغريب في سلسلة وفيات بأزمات قلبية، كل يوم يموت آلاف بأزمة قلبية.

أخرج براد من حقيبته بعض قصاصات الأوراق يبدو أنه حصل عليها من الصحف أو ما شابه، ثم أمسك أول ورقة والتي كانت تحمل خبر وفاة الكاتب مروان عبد الحليم، ثم قال وهو يشير إلى صورة الكاتب:

- هذا الرجل.. ربما تكون سمعت عنه.

دقق هيثم النظر جيداً لكنه أومأ في بلاهة، فقال براد:

- هذا الرجل هو كاتب وأديب مصري، توفى منذ فترة بأزمة قلبية في شقته.. بينما يزعم البعض أنه انتحر، لكن الحقيقة التي أكدها ابن عمه - الطبيب -أنه مات بأزمة قلبية رغم أنه عاش أربعين سنة دون شكوى صحية واحدة.

ثم أخرج ورقة أخرى وكانت تحوي صورة شاب وشابة وامرأة عجوز في حفل أو ما شابه، وكان الخبر مكتوب بالإنجليزية، قال برات:

- هذا الفتى هو طالب جامعي بريطاني مثلك.

ابتسم هيثم وهو ينظر إلى الشاب.

أكمل برات حديثه:

- لقد أُصيب بأزمة قلبية في أحد المراكز التجارية هناك.

سأل برات في صدمة:

- ومات؟!

- لا.. لمْ يمت حينها، بل ذهبت حبيبته والتي عملتُ أن اسمها (ميليندا) لتوقظه صباح اليوم التالي، لكنها تتفاجأ بأنه..

أكمل هيثم عوضاً عن براد في نبرة تأثر:

- لمْ يستيقظ، ولن يستيقظ..

قال براد وهو يخرج ورقة أخرة ويبدو أنه رسم دوائر حمراء عليها وكتب بعضاً من ملاحظاته على ظهرها:

- وأخيراً - وبالتأكيد ليس آخراً - الأستاذ بكلية الزراعة.. وحسب أقوال الشهود أنه توفي بأزمة قلبية فجأة أثناء أحد المحاضرات، وقال أحد الطلاب أن تصرفاته كانت غريبة جداً قبل وفاته.

قال المعلّم وهو جالس أمام جهاز التلفاز التالف يعبث بجهاز التحكم في غضب وبلاهة:

- هيثم..! أصلح هذا الشيء بسرعة ثم عُد إلى عملك.

- انتظر يا عم عبده! هذا الرجل قد ضل طريقه تقريباً.

أخذ المعلّم يضرب جهاز التحكم في الطاولة التي أمامه، وقال:

- هيّا يا فتى.. المباراة ستبدأ!

قال براد لهيثم وهو يضع أوراقه في الحقيبة:

- لا عليك يا فتى إذهب إلى عملك حتى لا تُضر.

- لن يفعل شيئاً.. إنه عمي، وفي الأصل أن تلك المباراة التي يريد مشاهدتها ليست مهمة إلى هذا الحد.

- وإن يكن.. إذهب حتى ينتهي عملك وأنا في إنتظارك هنا.

- لكني أنهي عملي حوالي الساعة التاسعة..

قال براد ضاحكاً:

- التاسعة أو العاشرة حتى..! أنا لن أستطيع الترجل في البلاد هنا، أنا مثل سمكة زينة قد ألقي بها في المحيط الهندي.

ثم أردف:

- ومن فضلك أريد فنجان قهوة آخر..

ابتسم له الفتى وأوماً له إيجاباً، ثم عاد إلى عمله مجدداً.

* * *

وفي التاسعة والنصف تقريباً، كان هيثم قد غير ملابس العمل إلى ملابسه الخاصة، ثم ذهب إلى عمه (صاحب المقهى) وقال له شيئاً في سرية، ثم أمسك عمه بمحفظته وأخرج نقوداً وأعطاها له، شكره ثم ودّعه هو وبعض الزبائن.

دنا من براد ليجده قد أرجع رأسه للوراء وغفا، فضحك ثم أيقظه في هدوء.

أفاق براد ليجد هيثم أمامه مبتسماً، فقال له بينما اختلط صوته بصوت تثاؤبه:

- أاااهه!! لقد تأخرت يا فتى.

- أنا آسف.. هيّا بنا.

حمل هيثم حقيبة براد ثم دعاه للذهاب معه، لمْ يفهم براد إلى أين يصطحبه هيثم لكنه اطمأن له ولم يعقب عليه.

وبعد مدة من السير وجد براد نفسه أمام مطعم كبير قد رأى مثله في بلادهم، بالتأكيد رأى مثله لأنه من أشهر المطاعم في العالم (وبالتأكيد أبهظها ثمناً)..

دلفا إلى الداخل وجلسا على طاولة، جاء النادل فطلب منه براد وجبة كبيرة له، ثم جاء دور هيثم الذي ظل يحدق بقائمة الوجبات ولا يفهم شيئاً منها.. ثم قال في نهاية الأمر أنه يريد مثل براد، ورحل النادل وجلس هيثم يحسب ما معه من مال خلسة حتى لا يراه براد، ثم سأله:

- هل ستكمل لي أم ماذا؟

- ليس هناك شيء آخر.. فقط راودني الشك بشأن تلك التشابهات، لذا رأيتُ أن آتي إلى مصر كي أستطيع التحقيق في الأمر، وكنت أحتاج أحداً يساعدني كي يكون دليلاً لي في البلاد، فأنا كنت أعتقد

أن مصر مجرد أهرامات ومعبد على النيل وبينهما طريق طويل صحراوي..

انفجر هيثم ضاحكاً وهو يقول:

- كل الأجانب يعتقدون هذا.

سأل براد:

- هل ترى ما أراه في الأمر؟

- بصراحة إنه فعلاً يكن شيئاً من الغموض وقد أثار إهتمامي به.

لمْ يستطع براد كتمها أكثر من هذا، فقال لهيثم:

- وبصراحة كنت أريدك معي في التحقيقات.

صمت هيثم قليلاً يفكر في عرض براد، ثم تابع براد:

- وهناك شيء يجب أن أخبرك به يخص هذا الأمر.. لكني لن أخبرك به إلا عندما توافق.

من الرائع طبعاً أن تجرب كونك ((جون هـ. واسطون)) تحت التدريب، لكنه بعد ما آخر جملة قالها براد كان يريد أن يفهم الصورة كاملة كي لا يتخلى عنه هذا الأمريكي ذو الشارب الغليظ في أي وقت؛ لذا قال له مبتسماً:

- أنا موافق.. لكن..

قاطعه يقول:

- لا.. صافحني وأقسم أنك توافق.

لمْ يجد هيثم مانعاً من هذا، مدّ يده لتقابل يد براد مصافحاتيْن، ثم تفرقت اليدان فقال براد:

- الأمر أنني سبق وأخبرتك سلفاً أن معظم القضايا التي أعمل عليها تحمل طابع الغموض والسرية، وربما الخيال..

ثم اقترب من هيثم وقال بصوت كالفحيح:

- وهذه القضية لقد وجدتُ النواة التي جعلتني آتي من أمريكا إلى مصر، حجر الأساس الذي قامت عليه كل تحليلاتي.

استطرد قائلاً:

- كان هناك في أمريكا وتحديداً كاليفورنيا شاباً يافعاً، لكنه كان منعزلاً منطوياً عن باقي الناس جميعاً، أبواه قرويان أرسلاه لإكمال تعليمه في المدينة.. وبدا أن الشباب الذين اختاروا دور المتنمرين اللعينين لمْ يتركوه في حاله، بل إنهم كانوا يتحرشون به كثيراً وكان يلاقيهم في برود وتسامح، ولا أعلم كيف عرفوا أنه لديه ((كولروفوبيا))، وفي أحد الليالي التي أبى فيها القمر أن يكتمل.. ذهبوا إلى شقته وخطفوه في سيارة أحدهم، كان يترأسهم فتى اسمه ((بيتر فيليبس)) ولاطالما كان نموذجاً للمتنمر ابن الغني المدلّل.. والذي كان يغير من الشاب لتفوقه الدراسي وغير هذا من المزايا

التي لا يمكن أن يحصل عليها بمال أبيه.. وذهبوا به إلى كوخ على أطراف المدينة، ثم قيّدوه جيداً وجلبت فتاة منهم أدوات تجميل وأخذت تستخدمها على وجه الشاب المسكين، كان مقصدهم أن يصبح شكله كشكل مهرج مخيف، لكنه لمْ يكن متقناً جداً بسبب حركات الشاب المستمرة بين الحبال التي قُيّد بها، ثم وضعوا عليه شعراً مستعاراً ملوناً، وبين ضحكاتهم الخانقة اللعينة حملوه ووضعوه في غرفة مليئة بالمرايا، وأخذ الشاب يبكي وهو يرى نفسه مخيفاً.. أسوأ عذاب أن ترى في نفسك ما اعتاد أن يرهبك، وهذا الشاب اسمه ((مايك ويلز))... ومنذ ذلك الحين اعتبرته الشرطة في عداد الموتى.

كان من الصعب على هيثم إستيعاب كل هذا، هل هذا الرجل يبالغ بقصته التي قد تكون مختلقة؟ أم أن هناك فعلاً من يتلذذ بتعذيب الناس لهذه الدرجة لكنه لا يعلم الدنيا جيداً

كان يتابع هيثم حديث براد غير مصدق، سأله وقد تملكه نوع من الخوف والفضول:

- وما الذي حدث لهؤلاء الشباب؟

أخذ براد شهيقاً ثم قال:

- لولا أن بعضاً من أجزاء جسدهم لمْ يتم العثور عليها لقلتُ أنهم في قبورهم الآن.

صاح هيثم في إنفعال:

- إنهم في الجحيم يا رجل!

- ولقد جاء له ذلك الذي يأتي في كل لحظات ضعف الإنسان، واستغلها جيداً ابن الزانــ.

- ومَن هو؟

- الشيطـان.. وليس أي شيطـان، بل إنه من أخبث خدام ((لوسيفر)).

- وكيف استغلها؟ لا أفهم شيئاً.

- لقد عقد معه صفقة.. وتحديداً عندما وصل مايك إلى حالة قصوى من الكره والخوف والبكاء، وكانت البنود تحمل طابعاً سوداوياً دموياً كعادة هؤلاء الخدام.. وكانت تضمن جعل مايك قوياً شرساً قاسياً، يستطيع الإنتقام من هؤلاء الذين أذوه.. بشرط أن تُلوّث روحه.

جاء النادل بالطعام ووضعه على الطاولة ثم رحل، وتوقف الاثنان عن الحديث حتى لا يسمعهما النادل، وعندما رحل سأل هيثم:

- ما معنى ((أن تُلوّث روحه))؟

- أي أن يكون جزءاً من روحه تحت سيطرة الشيطان الذي أبرم معه الصفقة.

فهم هيثم كل شيء الآن، لكن لا يخفى أن هناك ما يراوده بشأن القصة الخيالية تلك، ولقد لاحظ براد هذا من تعبيرات الإنكار على وجه هيثم، فلمْ يتردد براد من إخراج ملفاً كان يدسه بين ملابسه، وقال وهو يعرضه على هيثم:

- كنت أريد تأجيل هذا حتى تنتهي من طعامك، لكن ربما من شأنه أن يجعلك تصدق..

أمسك به هيثم وأخرج منه بعض الصور، كانت الأولى تحوي صورة لرأس شاب معلقة على جذع شجرة في مكان كثيف الخضرة والظلام، كان بجانبها ذراع وكلية، وكان المنظر شديد الرعب والهول..

والثانية كانت لفتاة.. ولا داعي لذكر تفاصيل.

هم براد ليُري هيثم صورة أخرى، فأشار له ناهياً بينما أحس براد أنه على وشك التقيؤ أو الإغماء، فوضع براد الصور والملف بين ملابسه مرة أخرى.

ثم بدأ في تناول وجبته وكأن لمْ يحدث شيء، كان هيثم في حيرة من أمره بشأن هذا الرجل، أحياناً يحسب أنه متغطرس ذو نظرات متهجمة طغت عليها الخيلاء، وأحياناً يشعر أنه شخصية غامضة من فيلم رعب، وأحياناً يشعر أنه يحمل ذنباً على عاتقه يحاول تكفيرها بمعاملة جيدة.. ثم تتحول للغطرسة مرة أخرى.

لكن لا يستطيع هيثم أن ينكر أنه تأثر بهذه القصة وقد نمى بداخله نوع من التصديق، لكن ها لمْ يمنعه من السؤال:

- وفيمَ تحتاجني يا سيد براد؟

توقف براد عن المضغ ناظراً إلى هيثم في صمت، ثم واصل المضغ حتى انتهي فقال:

- أنا أريد أن أقابل أقرباء الذين تعرضوا لتلك اللعنة.

- أعذرني.. لكن ما الذي يجعلك تحسب أنهم سيساعدوننا أو حتى سيفصحون عن أن أقاربهم ماتوا بطرق غير طبيعية.

- كل الذين تعرضوا للعنة شاهدوا المهرج قبل مماتهم عدة مرات، ورغماً عنهم كانوا يعترفون بكل شيء لأقرب الأشخاص إليهم.. إنها من أصول اللعنة.

تابع وهو يصنع غيثاً من الكاتشب على شطيرته:

- والآخرون سوف يخبروننا بكل شيء، أنا لدي طرقي جيداً.. ثم إن هؤلاء هم أنسب مَن سيساعدوننا؛ لأنهم قد عاشوا اللعنة قلقاً على أعزائهم.

- لكن أيضاً ليس كل هؤلاء لديهم الرغبة في الإنتقام لأعزائم أو منع الأذى لأمثالهم من الأبرياء.

- سنحاول مع مَن يصلحون لهذا..

ثم أخرج من جيبه ورقة، أعطاها لهيثم فقرأها على الفور:

« 1- كامل أنور سيف.. ابنه: أحمد العنوان (..)

2- مروان عبد الحليم.. ابن عمه: فؤاد سرور العنوان (..)

3- هنري دونالد روس.. حبيبته: ميليندا سكوت العنوان (..) »

بالتأكيد هؤلاء الذين اختارهم براد ليساعدوه في هذا الشيء الذي لا يعرفه، سأل هيثم:

- ولمَ هناك أحدهم أجنبياً؟

- لأن هؤلاء مَن يصلحون لمساعدتنا، أصحاب قلب أبيض ولقد تأثروا كثيراً لموت أعزائهم..

- وكيف عرفت كل هؤلاء؟

ابتسم في خبث يقول:

- لدي طرقي يا فتى.

- ولمَ لمْ تخدمك طرقك في جمع هؤلاء؟

- هناك أشياء لا تستطيع الإعتماد على أي حد لإنجازها، طرقي تتوقف عند جمع المعلومات فقط.

وأخيراً بدأ هيثم في تناول طعامه على مضض رغم أن هذا النوع من الطعام لا يستهويه، ثم قال براد الذي أنهى طعامه:

- مهمتك هي تسهيل العثور عليهم، أو لكي نكون دقيقين فلن نبحث عنهم ولن نتعب، كل عناوينهم موجودة في الورقة.

- إسمح لي في سؤال.

أومأ براد لهيثم كي يطلق سؤاله:

- بعد ما ستجمعهم.. أين ستذهب بهم.

- سوف آخذهم إلى بريطانيا حيث هذه الفتاة التي تُسمّى ميليندا.

- ومن ثم..؟!

- سوف نذهب لنكسر اللعنة..

* * *

وفي اليوم التالي انطلق براد وهيثم إلى أول واحد، وكان الشاب ابن كامل أنور، قضى براد ليلته في فندق رافضاً عرض هيثم ليبيت معه في منزله، وكذلك هو مَن دفع فاتورة المطعم وأبى أن يفعلها هيثم له أيضاً.. هناك شيء من الأرستقراطية في تعامل هذا الرجل.

إتصل براد بهيثم وأخبره أنه ينتظره في مدخل الفندق كي يذهبا إلى منزل كامل ليقابلا ابنه، ومن حسن الحظ أن الفندق ليس ببعيد عن منزل هيثم.

تقابلا فعلاً ثم استقلا سيارة قد أجرها براد من أحد توكيلات السيارات القريبة، كان هيثم يوصف العنوان لبراد بينما هو يقود، وعندما وصلا إلى العمارة سألا البواب عن شقة كامل، فأوصلهما إلى الشقة، طرق الباب ليخرج لهم شاب في أوائل العشرين متهجم الوجه ذو شعر نكوش ويرتدي فانلة داخلية، قال بصوت كالفحيح وهو يفكر عينيه كأنه استيقظ للتو:

- مَن؟

قال البواب:

- هؤلاء يسألون عليك يا أستاذ أحمد.

رمقهم بعينين ناعستين ثم قال للبواب:

- شكراً يا عم وليد.

انصرف عم وليد، ثم أشار أحمد لبراد وهيثم بالدخول، أغلق الباب ثم اقتادهما إلى الصالة حيث أريكة جلس عليها براد وهيثم، لاحظ براد صورتين معلّقة على الحائط، إحداهما لسيدة جميلة والأخرى.. لكامل.

جلس أحمد على كرسي في مواجهتهما منتظراً أحدهم ليتكلم، وبالفعل بدأ براد حديثه بالإنجليزية:

- هل تجيد الإنجليزية؟

لمْ يتعجب أحمد من أن هذا الرجل أعجمي، ولمْ يبد أن مشاعر.. كأن قلبه قد اُستئصل منه، حتى أنه بدأ يكتسب تجاعيداً، أو ربما هي من آثار النوم.

أومأ له إيجاباً، فقال براد:

- في بداية الأمر أريد أن أقدم لك تعازيّ على وفاة والدك.

كان أحمد يحدق بالأرضية السجادية مستمعاً إلى براد، بينما أحس هيثم وبراد أنه لا يسمعهما وأنه غير مركز.

أردف براد:

- وأعرفك بنفسي.. أنا براد آدامز، محقق من أمريكا.

أجّل أحمد ترحيبه ليرى ما الذي جاء بهذا الرجل وما سبب بداية كلامه بتعزيته لوالده، وكان براد يدرك هذا جيداً، فلمْ يضع وقتاً وأكمل يقول:

- لقد جئت مصر بسبب إنشغالي بقضية غامضة قد توصّلت إلى معظم تفاصيلها.

ثم أطلق قنبلته التى جعلت أنظار أحمد تلتفت له:

- وكانت هذه القضية تتعلّق بوالدك.. الدكتور كامل.

الجميع يتهاوى

وبعدما شرح برات لأحمد كل شيء، كان أحمد شارداً كأنه في عالم آخر، ومكث على هذا الحال مدة خمسة عشر دقيقة، ثم فجأة انهمرت الدموع من عينيه، وأخذ يبكي ويقول كلمات هامساً لمْ يفهم منها هيثم إلا قليلاً.. ولمْ يفهم منها براد أي شيء لأنه لا يتحدث العربية.

كلمات مثل: ((كنت أعلم.. لقد حاولتُ إنقاذه..)) والباقي كانت كالطلاسم في أذن هيثم.

حاول هيثم أن يأخذ بيد أحمد الذي انفجرت مشاعره المختزنة بداخله مرة واحدة، والذي تهاوى على الأرض كالطفل، شدّه هيثم وأجلسه على كرسيه مرة أخرى، ثم ألقى نظرة على براد فرآه جامداً كالصنم لا يتحرك ولا يومئ، فقط يتابع المشهد الدرامي وعلى وجهه علامات الأسى التي اصطنعها بدوره، ولمْ يجسر على التدخل كأنه ينتظر أن يتوقف أحمد عن البكاء كي يعرض عليه أن يساعده.

لكن هيثم دفعته طيبته لتهدئة أحمد بكل ما يقدر، وأخذ يحدثه أنه قدر الله وأننا كلنا لها.. حتى أنه كاد يبكي عندما تذكر والده المتوفى أيضاً، لكنه تمالك نفسه بصعوبة كي لا يزيد الطينة بلة.

وبعد محاولاته الجاهدة هدأ أحمد وتوقف عن بكائه، ثم نهض متجهاً إلى غرفته، وعاد بعد برهة ممسكاً بظرف ثم مرره لبراد وهو يمسح دموعه بمنديل قد جلبه، ثم بعدها تذكر أنه لا يفهم العربية فأخذه منه وأعطاه لهيثم.

وأخذ هيثم يقرأ ما بالظرف، يقرأ سطراً بالعربية في سره، ثم يترجمه - على قدر إستطاعته - بالإنجليزية لبراد.. براد الذي انتفض عندما سمع الاسم الموقع على الظرف.. اسم ((مروان عبد الحليم))!!

* * *

لقد اكتملت الصورة لدى براد، ولقد أصبح لديه دليل يواجه به د. فؤاد إن أبى الإعتراف أو قرر المراوغة، ولقد تشكلت لديه صورة عن الطريقة التي كان يظهر بها المهرج لضحاياه ومنهم مروان الذي كتب هذه الورقات التي فادته كثيراً، ولقد علم أن مصر صغيرة جداً لكن ليست في المساحة، بل في المعارف.. أو كما علّق هيثم: ((مصر كلها غرفة وصالة!)) أي أن الاثنين الوحيديْن تقريباً الذيْن تعرّضا للعنة المهرج مايك في مصر كانت هناك علاقة بينهما وحتى لو بسيطة، والعلاقة هي أن كامل وفؤاد كانا أصدقاء دراسة أو ما شابه، وفؤاد هو ابن عم مروان..

ولقد أخبره أحمد أن أباه حصل على هذا المظروف بطريقة ما لكنه لا يعرفها، ولقد وجدها الطلاب معه بعد موته وأعطوها لأحمد.

عرض براد - بطريقته البسيطة والذكية – على أحمد المساعدة، ثم أخبره أنه لا بالتأكيد لا يريد أن يتحمل أحد الأبرياء ذنب مجموعة شباب طائشين، وأنهم ذاهبون لكسر اللعنة.. تُرى هل وافق أحمد؟

في بداية الأمر كان براد موقناً من رد أحمد، ولقد استشف خسارة أحمد لكل شيء، لن يخاف أن يتأذى.. واستشف فطنته وقوته، وليست القوة الجسمانية فقط بل إنها قوة القلب والعقل، مثل هذا قد أخطأ في حق أبيه بحكم أنه لازال شاباً.. ربما أنه قد تفّه مما عاناه والده، وربما أنه حاول إنقاذ أبيه لكن من الواضح أنه أخفق بجدارة، فبالتأكيد لن يضيع هذه الفرصة الذهبية للتكفير عما ارتكبه أو عما قصّر فيه.

وأيضاً أنه قد عاش حياة وحيدة وقد جرّبها في سن صغير، وسوف يأبى أن يعيشها غيره وأن يفقد شخصاً عزيزاً عليه.

لكن ما تعجب منه براد كثيراً هو أن أحمد قد صدّقه بسهولة، لمْ يراوده شك ولو للحظة، مثَله كمثل هيثم مع إختلاف العقلية والمصلحة، عندما كان براد يعمل على القضية في أمريكا ويخطط ويجمع المعلومات من مصادره في مصر.. كان يتوقع أنه سيبذل جهداً عظيماً في إقناع الناس الذين سيساعدوه، لكنه بالتأكيد لن

يضيع الوقت في التفكير حتى الآن تسير بالشكل المناسب.. يجب أن يبدأ في تسجيل الهدف الثاني.

لمْ يُجهد براد في إقناع أحمد، وكذلك هو متأكد من أنه سيضحي بروحه في سبيل كسر اللعنة.. لكن العقبة القادمة والتي توقع براد أنها ستعرقله، هي د. فؤاد سرور، كيف سيتخلى عن حياته وأطفاله ويأتي معهم للمجهول وهو يعلم أنه قد ألا يعود..

وبدون تردد قال أحمد:

سوف أجهّز حقيبتي وأدبر بعض الأمور وسوف آتي بعدها معكم.

وافق براد مبتسماً وأعلمه أنهما سينتظرانه في سيارته أمام العمارة.

وفي السيارة.. جلس براد وهيثم فيها، فقال هيثم:

- إنه مدمر كلياً.. لمْ أتوقع بصراحة أن يوافق بلا تردد هكذا!

- وهذا ما سيساعدنا.. لمْ يعد يخشى شيئاً، سوف يضحي بنفسه لأجل إكتمال الخطة.

صمت براد لبرهة ثم قال فجأة وأنامله تتراقص على المقود:

- هيثم.. هل تصدقني؟

- بالطبع أصدقك!

- ولمَ تصدقني؟ ربما أكون محتالاً، ما الذي سيجعلك تكمل معي الطريق؟ هؤلاء ذاقوا مرارة الفقدان.. أما أنت؟

قال هيثم متحاشياً النظر في عيني براد:

- إن هدفك نبيل.. وعيناك صادقتان..

أخذ نفَساً عميقاً مردفاً:

- لقد علمتْني الحياة هذا.. وكذلك أمي، علمتْني أن الصادق لا يغير حديثه حتى ولو كرره مئات المرات، علمتْني ألا أجد فرصة للمساعدة وأهدرها.. هذا ما اكتسبته من الحياة.

- كلامك يوحي بحياة نبيلة، بالتأكيد يا فتى أنك كسبت الكثير بمادئك الشريفة هذه.

ابتسم هيثم في مرارة قائلاً:

- بالعكس يا سيدي.. لقد خسرتُ الكثير، لكن المكسب المادي لا يهمني، إنما هو الضمير فقط.

وجّه براد نظره إلى الشارع وقال:

- أتعلم شيئاً؟ ليس لدينا مثلك في بلادنا، أو هم قليلون جداً هناك.. كما أنا متأكد من أنهم قليلون جداً هنا أيضاً.

لمْ يبتسم هيثم، ولمْ يبد ردة فعل.. فقط كان يتابع خطوات أحمد إلى السيارة حاملاً حقيبة سفر ليست بالكبيرة.

* * *

ذهبوا جميعاً إلى منزل د. فؤاد بالمهندسين، طرقوا الباب مراراً دون إستجابة، وبالصدفة مر أحد حراس العقارات من أمام المنزل، دنا منهم وأخبرهم أن د. فؤاد لمْ يعد يسكن هذا المنزل لكنه لازال مالكه، وعندما سألوه عن محل إقامته لمْ يعرف الرجل، لكنه أعطاهم عنوان عيادته في السيدة زينب.

ركبوا السيارة وانطلقوا سريعاً متوجهين إلى منطقة السيدة زينب، مكان يضج بالناس وتفوح منه البخور، أو هي فقط المنطقة المحيطة بالمسجد.

سأل هيثم أحد المارة عن العيادة فأشار على بناية حديثة تقبع على ناصية الشارع، نزلوا من السيارة وترجلوا إلى البناية، على بابها تجلس سيدة بفرشة خضراوات، صعدوا درجات السلم إلى الطابق الثالث، من بداية الطابق الثاني لاحظوا شيئاً.. هناك تجمع كبير على السلم وحتى العيادة، لا يُعقل أن يكون هؤلاء جميعهم مرضى، وهذا كان ظن براد، لكن ظنه كان خاطئاً، كلهم زبائن فؤاد ينتظرون دورهم.. يا للعنة!

- هل مصر كلها من زبائن د. فؤاد؟

قالها براد هامساً حيث لمْ يسمعه سوى هيثم وأحمد:

- هذا يتوقف على كفاءة الطبيب ومهارته.

هذا كان رأي أحمد.

حاولوا الدخول إلى العيادة بصعوبة، ليجدوا عدداً لا يستهان به من الزبائن على مقاعد حديدية، ويجلس التمرجي على مكتبه بجانب غرفة الكشف، أمامه دفتر كبير وحاسوب، وفوقه ساعة ضخمة تشير للسابعة مساءاً.

استوقف هيثم براد وأحمد وقال لهما:

- من المستحيل أن ندخل له الآن، لن يسمح لنا هذا الرجل.

وأشار إلى التمرجي البائس ذي العيون الغاضبة.

فسأل براد:

- وماذا نفعل؟ يجب أن نقابله اليوم وحالاً!

قال هيثم بعد تفكير:

- لدي فكرة..

تابع قائلاً:

- أنت تذهب إلى التمرجي وتخبره أنك صديق د. فؤاد من أيام أحد المؤتمرات الطبية في أمريكا، وأنك آتٍ لتوك من الطائرة وتشتاق لمقابلته.

- وأقول كل هذا بالإنجليزية؟

- نحن سنترجم لك.. لكن وجودك معنى هو تذكرة الدخول، وبعدها يمكننا إخبار د. فؤاد بكل شيء نريد.

- فكرة جيدة.

تحمس براد وهو يدنو من التمرجي، وتبعه هيثم وأحمد، قال براد كل شيء بالإنجليزية، وترجم هيثم للرجل بالعربية، وانتظرا رده، فقال التمرجي في لهجة حانقة:

- انتظرونني ثانية.

ثم اختفى في غرفة الكشف لدقيقة، وعدما خرج قال:

- سوف ينتهي الدكتور فؤاد حالاً ويمكنكم الدخول.

توتر هيثم من نظرات هذا الرجل المريبة لهم، توقع بخياله أن فؤاد لمْ يسافر إلى أمريكا أبداً، وأن أمرهم انكشف، وهذا الطبيب يريد فئران تجارب جديدة.

لكن لمْ يحدث شيء.. خرج مَن كان مع فؤاد، أشار التمرجي إلى براد ليدلف إلى الداخل.

وعندما دخلوا وجدوا رجلاً أربعينياً أشيب الشعر يختبئ وراء عويناته، لمْ يترك نظرته الغامضة رامقاً براد، جلس ثلاثتهم أمامه فبادر براد بقوله:

- مساء الخير يا دكتور.

- مساء النور.. مَن حضرتك؟ هل أعرفك؟

نزع براد قبعته عن رأسه وفرك شعره الأشقر الغارق في العرق، ثم قال:

- بصراحة لا.. لكن تلك كانت الطريقة الوحيدة كي نقابلك، لو كنا انتظرنا كل مَن بالخارج فلن نقابلك أبداً.

لمْ يفهم فؤاد شيئاً.. فأكمل براد:

- أنا براد آدامز.. محقق أمريكي.

وحكى له كل شيء في إختصار بينما لمْ يبعد عينيه عن فؤاد.

وبعدما انتهى براد من حديثه وثب فؤاد من على كرسيه يصيح فيهم محمر العينين:

- هرااااااء!!

- هذا ليس هراءاً.. إنها الحقيقة، هكذا مات كامل، ومات مروان!

- مروان مات بأزمة قلبية طبيعية.. أتريد أن تقنعني أن مهرجاً مَن قتله؟!

- هذه الحقيقة التي تنكرها بداخلك! أنا أعلم أنك تعلم كل شيء.. بالتأكيد مروان أخبرك قبل موته، هذه من علامات اللعنة!

نهض فؤاد من على كرسيه ونادى التمرجي كي يُخرج هؤلاء، جاء التمرجي فوراً وعلى وجهه علامات الذعر، فقال فؤاد له:

- أخرج هؤلاء المجانين من هنا!

لمْ يتبق لبراد إلا سلاحه الأخير، أخرج من جيب معطفه الظرف ثم لوّح به في الهواء.

وفجأة صمت فؤاد وجلس على كرسيه مرة أخرى، وقال للتمرجي أن يرحل، رحل الآخر متعجباً من الموقف، لكنه كان متأهباً للفتك بهؤلاء الناس إن حدث أي شيء.

كان فؤد شارداً ينظر إلى الظرف، ولمْ يجسر على منع دموعه الساخنة أن تنساب في صمت، ثم وضع وجهه بين كفيْه.. قال براد:

- أنا أشعر بك.. وأعلم كل شيء.

ثم دنا منه - ولأول مرة - أخذ يربت على كتفه ويُهدئه، ثم أخذ فؤاد يردد بصوت متحشرج:

- لقد كان مروان أخي.. لمْ أكن لأرضى بأن تُمس سمعته بعد مماته، لا أنكر أنني لمْ أصدقه، أنا مَن قتلته!!

تكررت الجملة الأخيرة عدة مرات، قال براد في لهجة هادئة:

- إنه مصيره، لكن مازالت لديك الفرصة.. فرصة لتُصلح ما اقترفته، فرصة لننهي هذا المهرج ونمنعه من قتل الأبرياء مرة أخرى.

بدأ فؤاد يهدأ ويسمع من براد خطته، الحق أن نظرات الإنكار كانت تنفذ من عينيه، لكنه اقتنع بعد برهة، ثم طلب منهما الإنتظار في أحد المقاهي بجانب العيادة حتى ينتهي من كشوفاته، وسوف يتبعهما إليها، ووعدهما أنه سيذهب إلى منزله ليجمع أغراضه لهذه الرحلة.

وفعلاً خرج الثلاثة من العيادة متوجهين إلى المقهى الشعبي الذي يشبه المقهى الذي يعمل به هيثم، وبعد حوالي ثلاثة ساعات وجدوا فؤاد يدنو منهم ومعه مساعده - أو التمرجي - وهو يقول له:

كما أخبرتك يا فتحي.. الدكتور في إجازة خارج البلاد لمدة أسبوع تقريباً.

ثم ودّعه الآخر ورحل، وبعدها اقتادهم فؤاد إلى منزله الذي يقطن به، وأخيراً وصلوا بعد مغامرة من الأزقة والممرات السرية والشوارع الضيقة.

فتح فؤاد باب المنزل وطلب منهما إنتظاره في غرفة المكتب، جلس براد وهيثم على الكرسيْن القريبيْن من المكتب، وجلس أحمد على الأريكة المقابلة للمكتب (وهو لا يعلم أن والده كان يجلس هنا ذات يوم)..

أخذ براد يتأمل في الغرفة الرائعة ذات الأثاث الراقي والإضاءة المريحة للعين، وبعد وقت ليس بالهيّن وجد هيثم أن فؤاد قد تأخر في حزم حقيبته، فخرج بهدوء من غرفة المكتب متجهاً إلى باب الغرفة الوحيدة التي ينبع منها الضوء في المنزل، كان يسمع صوت فؤاد جيداً، فعلم أنه لمْ يهرب أو ما شابه.. بل إنه كان يتحدث في هاتفه:

- ألو.. ألو يا عمي، الحمد لله أنا بخير، بعد إذنك كنت أريد أن أتحدث إلى الأطفال..

وغاب صوته بعض الوقت، ثم سمعه هيثم يتكلم مرة أخرى، وهذه المرة بنبرة رقيقة وسعيدة:

- نورا! كيف حالكِ يا بنيتي.. وكيف حال محمد؟، وكيف حال أمكم؟ الحمد لله يا عزيزتي أنكم بخير، كنت أريد ان أخبركِ أنني لن أستطيع زيارتكما هذا الأسبوع؛ فأنا مسافر.. لا لن أتأخر، لا تحزني يا فتاة!! أنا أعلم أنكِ ستشتاقين إليّ، وأنا كذلك.. عندما أعود سوف أجلب لكِ لعبة كبيرة، أنتِ وأخوكِ، لكن لا تلعبي بلعبته أتفهمين؟!

قال التحذير الأخير ضاحكاً، ثم أخذ يقهقه ويودّع ابنته حتى أغلق المكالمة، ثم سمعه هيثم يقترب من الباب، فعاد سريعاً إلى غرفة المكتب لينغمس بين براد وأحمد كأنه لمْ ينهض.

جاء فؤاد ثم قال:

- هيّا بنا.. نتكل على الله.

قالها بالعربية مرة وبالإنجليزية مرة، ثم انطلقوا لحجز أربعة تذاكر إلى لندن، سأل براد هيثم آخر مرة:

- هل ستكمل معنا الطريق إلى آخره؟

قال في ثقة:

- نعم.. إلى آخره.

* * *

جاء براد إلى مصر موقناً أن هناك ما سيعطل خطته، هناك طريق مدبب سوف يضطر أن يسلكه، ثم يصل إلى آخره خاسراً شيئاً ما، لكن كل شيء سار على نهج مثالي.

كذلك توقع أن يرفض أحمد ود. فؤاد مساعدته في مهمته، لكنهما وافقا دون تردد، ولقد صدقاه بسهولة، ولمْ يكن هذا ناجماً عن حماقتهما، بل إنه ذكائهما ونيتهما المخلصة، بل إنه أيضاً اكتسب صديقاً جديداً، نعم ((صديق)) وليس ((مساعد))، إنه هيثم الشاب طيب القلب الفطن، الذي لمْ يتعامل مع أحد مثله من قبل، شاب على الفطرة بالفعل.. قرر المساعدة حتى بعد إنتهاء دوره في القصة، وكذلك لقد براد قرر ألا يخبر أحداً بالقصة، لكنه لاإرادياً أخذ يروي لهيثم كل شيء، ثم شعر أنه لمْ يقله، شعر أن هذا الفتى لن ينطق بشيء حتى نهاية عمره..

ورغم كل هذا كان مُصِراً على أن يُكمل طريقة معاملته لهم، طريقة غامضة وقد تصل إلى التكبر، لقد انتهى الجزء الأصعب.. وبقي السهل.

الفاتنة الحزينة

تغيب الطائرة عن سماء القاهرة، وتجتاز المياه والبلاد وسط محيط السحاب والهواء، حاملة أربعة في رحلة إلى المجهول، رحلة هدفها إنقاذ الأبرياء من لعنة شيطانية خبيثة، رحلة لإصلاح خطأ جسيم اقترفته مجموعة شباب طائشون.

حاملة أربعة.. أولهم رجل خمسيني جلبه حب الغموض والتحري حول المجهول من بلاده إلى بلاد النيل، ثم إلى بلاد الإنجليز.

وثانيهم طبيب أربعيني مخلص إلى صديقه وابن عمه، مخلص لدرجة أن حياته تغيرت منذ وفاته، لمْ تعد زوجته تطيق حالته السيئة ومكوثه في البيت واضعاً يده على خده، وأحياناً قابعاً في غرفته يبكي ويستغفر ربه.. لدرجة أنها طلبت أهلها ليحاولوا لفت نظره نحو أسرته وعمله، لكن دون فائدة.. رحلت هي والطفليْن إلى بيت أبيها، وأقسمت أنها لن تعود لمنزلها إلا عندما ينسى فؤاد ابن عمه، فقال لها أن التي لا تتحمل زوجها في أقسى لحظات حياته ولا تتحمل مشاعره وحبه لأهله فإنها - ببساطة - لا تصلح له..

وثالثهم خفيف الظل الذي لمْ يعد كذلك، ذاك الشاب الظريف اللمض الذي لمْ يكن يمر عليه يوم إلا وهناك خلاف بينه وبين أبيه،

ثم الآن يتمنى أن تعود الخلافات لتملأ المنزل مرة أخرى، يستيقظ صباحاً على صوت والده وهو ينهره كي يستيقظ ويفتح النوافذ كي يدخل هواء ربنا.. كل شيء تغير بالنسبة إليه، ليست هناك لذة للطعام، ولا للأصدقاء، ولا لأي شيء..

ورابعهم هو من جاء صدفة، لكن بقصد منه، الذي كان رب أسرته من بعد وفاة والده وهو طفل، لاقى كل شيء في سبيل إنقاذ مركب أسرته - المكونة من أمه وإخوته - في بحر الحياة الغاضب ذي التقلبات، ربما تحسب أنه سيكون شخصاً شديد الطباع نتيجة لكل لحياته الصعبة، لكن النفوس الطيبة التي يخلقها الله هكذا لا يغيرها أي شيء، وسوف تظل بطيبة قلبها حتى تُوضع في القبر وتُردم بالتراب.. هيثم الذي يمثل الشاب العربي الفتي الوثيق، والذي لمْ يتوانى لحظة عن مساعدة من يحتاج المساعدة حتى ولو كان من جنس ودين وبلد آخر، والذي اعتاد أن يأخذ على الناس سريعاً ولا يضع فواصل بينه وبينهم، تجده في المقهى يوصل الطلبات للزبائن، ثم لاإرادياً يفتح موضوعاً مع أحد الزبائن ويدلي بآرائه ويقترح حلولاً دون أن يفكر لحظة في أنه لا يعلم مَن هذا الشخص الذي يتحدث معه.

ولقد ذهب هيثم ليحزم أمتعته في منزله، قبّل يد أمه وأخبرها أن أحدهم دبّر له عملاً بسيطاً وسوف يذهب ليراه، وترك لها نقوداً وجاء بأدوية تكفيها لمدة أسبوع، وبعدها مر على عمه وأبناء عمه ووصاهم على والدته مدة سفره..

* * *

وبعدما وصلت الطائرة إلى وجهتها، وهبطت على الأراضي الإنجليزية.. أخذ الجميع حقائبهم وخرجوا من المطار ليطلبوا سيارة أجرة توصلهم إلى منزل الفتاة ميليندا..

أخبر براد السائق بالعنوان، وبعد ربع ساعة وجدوا أنفسهم أمام عمارة سكنية في منطقة ذات مستوى متوسط لكن هذا لمْ يمنع كونها مكاناً رائعاً، وكان هيثم طوال الطريق في السيارة يتأمل الحدائق والشوارع والمباني والناس في بهجة، وكذلك كان عندما نزلوا من السيارة.

كانت الشقة في الطابق الثالث وكانت الطابق يحوي شقتيْن، احتار براد بين الشقتيْن، لكنه قرر أن يطرق باب إحديْهما.. فوجدوا سيدة عجوز إفريقية ودودة الملامح وهادئة النبرة تفتح الباب.

علم براد أن هذه ليست شقة ميليندا لأنها وحسب مصادره تعيش بمفردها ، لكنه لمْ يجد مانعاً من سؤال هذه السيدة:

- صباح الخير سيدتي.. نحن نبحث هم الآنسة ميليندا..

- ومَن أنتم؟

- نحن محققون من أمريكا، ونريد أن نقابلها لنسألها بضع أسألة.

رمقتهم السيدة للحظات ثم اغلقت باب شقتها ودنت من باب الشقة التي تقابلها، ثم دقت الجرس مرتين، أشار فؤاد للرجال بأن يتراجعوا للوراء بحقائبهم كي لا تفزع الفتاة عندما تراهم.

وبعد برهة كان الباب يُفتح في هدوء ليُظهر ما بداخله من ظلام، لمْ يتبين أي منهم شيئاً، ولمْ يسمعوا ما كانت تقوله السيدة للفتاة التي تتوارى خلف الباب، إلا أنها سمحت لهم بالدخول بعد فترة من الحديث.

تقدمت السيدة تدلف داخل الشقة، وتبعهم الأربعة بعدما نصحهم براد أن يتركوا حقائبهم بالخارج كي لا يزحموا الشقة، قال هيثم معارضاً:

- لا يا رجل ربما تُسرق.

ضحك براد ساخراً من هيثم، ثم وجد هيثم د. فؤاد يضع حقيبته بجانب الباب ثم يدخل وراء براد، تعجب هيثم لكنه وضع حقيبته ودلف يتبعه أحمد في تباطؤ.

تحمل الشقة طابع البساطة، ليس بها أثاث سوى كرسيْن خشبييْن هزازيْن، وطاولة طعام حولها خمسة مقاعد، جلس الأربع رجال على الطاولة وجلست السيدة العجوز على أحد الكرسيْن، والآخر كانت ميليندا جالسة عليه، تملك ميليندا شعراً مصففاً قصيراً أحمر اللون، وكانت ترتدي ملابس صيفية مناسبة للجو المعتدل قليلاً، لكن

لاحظ الجميع أنها لا ترفع رأسها أبداً، لدرجة أنهم لمْ يتبينوا ملامحها جيداً، كانت تنظر إلى الأرض في شرود وبوجه حزين.

وبدا على أحمد نوع من الإهتمام بها قليلاً.

كان هيثم يتأمل الشقة ذات الغرفة الواحدة والمطبخ المفتوح على الصالة ودورة المياة فقط.

وقرر براد أن يبدأ الحديث بجملته المعتادة:

- أنا براد آدامز.. محقق أمريكي

لمْ تبد الفتاة أي ردة فعل، وبنبرة هادئة بسيطة أخذ براد يروي لها كل شيء، بينما كانت السيدة تربت على يد ميليندا، وكانت تصغي لبراد في إهتمام متسعة العينين في ذهول.. وعندما انتهى من حديثه ألقى نظرة على الفتاة ليجد أن لمْ يتحرك لها ساكناً.. ولازالت على وضعها الغريب، حتى أنها لمْ تبكي عندما ذكر براد اسم هنري لعدة مرات، على عكس السيدة التي كانت مهتمة جداً واغرورقت عيناها لكن دون أن تبكي.

- آنسة ميليندا.. هل أنتِ بخير؟

هذه المرة نظرت إليهم، ليروا شحوب وجهها والهالات السوداء تحت عينيها الزرقاوين.

كانوا يترقبون ردها بفارغ الصبر، قالت ميليندا وهي تجول بعينيها الناعستين على الجلسين:

- أنا بخير.. وأصدقك.

- هذا مبشر!

- لكن.. ما السبب لمجيئك الآن؟ أو ما الجدوى مما تريد فعله؟

- أأأ.. نحن نريد كسر اللعنة التي تسببت في كل هذا.

قالت مبتسمة إبتسامة في مرارة:

- لكن الأوان قد فات.

نظر براد لهيثم الذي يجلس بجانبه ثم قال:

- أنا أعلم أنكِ فقدتِ حبيبكِ وصديقكِ الوحيد، وأعلم أنه ربما تشعرين بالذنب حيال هذا، حال أنكِ لمْ تصدقي حبيبكِ عندما أخبركِ بما رآه أو بما مر به.

أردف وهو يشير لأحمد وفؤاد:

- وهناك أمثالك الكثير.. لكن لدينا فرصة لإصلاح كل هذا، لنقي الأبرياء شر اللعنة الشيطانية تلك، وكذلك لنقدم لأحبائنا المعروف الذي يستحقونه..

- لكني لن أفيدكم في شيء، بل سأعيقكم كثيراً.. أنا ضعيفة جداً يا سيدي؛ ليست لدي القدرة على طهو الطعام لنفسي، السيدة لوسي هي مَن كانت تطهو لي الطعام كل هذه المدة، وهي مَن تهتم بشؤون منزل..

أخرجت من جيبها علبة سجائر، أخذت واحدة منها وأشعلتها وهي تقول:

- أنا لمْ أعُد ميليندا القديمة، أنا حقاً لا أعرف مَن أنا.

قال براد في حماسة:

- لكن إسمحي لي أن أخبركِ انكِ أقوى فتاة رأيتها في حياتي، الفتاة التي لمْ تنهار بعد شهور من تأنيب الضمير والخوف والكوابيس هي حصن منيع.. ولآخر مرة أنا متمسك جداً بكِ.

ابتسمت في سخرية وهي تنفث الدخان حولها.

أخرج براد من جيبه ورقة وقلم ودوّن عليها بعض الكلمات، وقال:

- عموماً إنه قراركِ آنسيتي.. لكن في حال أنكِ غيّرتي رأيكِ فهذه هي ورقة تحوي عنوان كوخ مايك الذي تكمن في اللعنة، كاليفورنيا.. غابة ((فوندير جروف))..

أردف يقول:

- هيّا يا رجال.. لدينا رحلة طويلة.

فتح براد الباب وخرج يتبعه هيثم وفؤاد، ووقف أحمد أمام ميليندا وقال لها:

- كنت أريد ان أخبركِ شيئاً.. إنكِ آنسة صلبة بالفعل، طوال الجلسة لمْ تذرف عيناك دمعة واحدة، لقد فعلتِ ما لمْ يفعله رجال أقوياء.

نظرت في عينيه وابتسمت في مرارة:

- أو ربما لأن دموعي قد جفّت ونفدت.

ابتسم الآخر لها، وقال وهو يرحل:

- إلى اللقاء آنستي.. لقد خسرنا ضلعاً مهماً.

ثم أمسك بحقيبته التي وضعها بجانب الباب من الخارج وهبط درجات السلم كي يلحق بالباقي.

وقف فؤاد في الشارع منشغلاً بهاتفه، وكذلك كان أحمد، أما هيثم فتأكد أنه وبراد بعيدان عن فؤاد وأحمد، وقال له بصوت خفيض:

- هناك شيء لمْ أفهمه.. لماذا أنت متمسك بتلك الفتاة لهذه الدرجة؟

أجابه براد وهو يطالع تطبيق خاص بتذاكر الطيران في هاتفه:

- لأنها قوية جداً.. لقد استنزفت ما بداخلها من حزن وإنكسار، هي الآن جاهزة لأن تلقي نفسها في البحر حرفياً.. نظرتي لا تخيب يا هيثم أبداً، خبرة الحياة لها دور كبير في أي بقعة في العالم.

- كما ترى يا سيدي.

ثم قال براد مخاطباً الجميع:

- سوف نقضي الليلة في أي فندق حتى ميعاد الطائرة غداً.

لمْ يبد أي منهم إعتراضاً، ذهبوا إلى أقرب فندق وقضوا فيه الليلة، ليلة مرّت سريعاً بطريقة غريبة، لمْ يراود أي منهم النعاس، كانوا يفكرون في رحلة غداً.. آخر رحلة بالطائرة، وربما تكون آخر طائرة.

التجهيزات

وفي رمشة عين وجدوا أنفسهم أمام المطار في كاليفورنيا، شعر براد ببعض الشوق لبلاده، قال وهو يخرج من باب المطار:

- حمداً للرب أنني عُدت مرة أخرى.. لقد بدأ الطريق الحقيقي.

ثم وجدوا أن براد يحتضن أحد الرجال أشداء البنية الذين يرتدون معطف جلدي أسود اللون، ولديه شارب بني كث، قال براد لهم وهو يشير إلى هذا الرجل قاسي الملامح:

- أعرفكم يا رجال.. هذا باندي باسكر، أحد أخلص أصدقائي.

ثم أخذ يعرفه عليهم واحداً تلو الآخر، حتى وضع باندي يده على صدره ثم انحنى مُرحباً.

دعاهم براد لركوب سيارة مرسيدس كبيرة سوداء اللون تقف أمام باب المطار، وضعوا أمتعتهم في الحقيبة الخلفية، ثم ركبوا لتنطلق بهم السيارة في شوارع كاليفورنيا.

* * *

كان المكان الذي توقفوا فيه غريباً، كان منزل كبير فاره تحيطة الأسيجة النباتية المرتفعة من جميع الجهات، فُتحت لهم البوابة ليروا المنزل أبيض اللون الضخم والذي تزيّن ببعض الرسومات وبعض النوافير التي تضخ الماء حوله، نزلوا من السيارة وأخذوا حقائبهم متعجبين من هذا المكان، حتى أن هيثم أخذ يتساءل في نفسه: ((من أين لبراد كل هذا؟))، دلفوا داخل المنزل ذو الأثاث الراقي والتحف الفنية، ولمْ يتوصلوا لنهاية الرواق بسبب إتساع المساحة، قال براد وهو يشير لباب ما:

- سوف نأخذ جميعاً قسطاً من الراحة.. لكن بعد أن نطمأن على التجهيزات.

ثم فتح الباب ليظهر سلم طويل تحت الأرض، تبعه الرجال حذرين حتى وصلوا إلى آخره، ما كل هذا؟.. كانت تلك غرفة ضخمة مليئة بالرجال الذين يرتدون معاطفاً جلدية سوداء مثل باندي، وأمامهم ترسانة أسلحة وقنابل تكفي لإحتلال محافظة، حيّا براد الرجال وكان بجانبه باندي، كانوا حوالي ثلاثين رجلاً من نفس الفصيلة والهيئة الجسمانية الضخمة المكتنزة بالعضلات، والشوارب واللحى الكثة الغزيرة، ومنهم مَن يرتدي نظارات شمسية وقبعات سوداء، كان منهم الأبيض والأسود، لكن بدا أن كلهم يحترم باندي ويوقره كأنه رئيس هذه المجموعة المرعبة، كانت هناك لوحة ضخمة عُلّقت على الحائط وسط البنادق والرشاشات اللامعة، وعليها خريطتين، واحدة توضح تضاريس مدينة كاليفورنيا كما

كُتب عليها، والأخرى كانت تحوي خريطة لمكان ممتلئ بالأشجار، كُتب عليها ((غابة فوندير جروف))..

هتف براد بصوت جهوري:

- أشكركم يا أيها الرجال على جهدكم الذي بذلتوه، طوال الأسبوع السابق تتدربون وتجهزون للعملية، غداً سننتهي من كل شيء، وسوف نواجه المجهول في سبيل إنقاذ البشرية من خطر شيطاني.

سمع أحمد أحد الرجال يهمس في أذن صاحبه قائلاً:

- ومن أجل الخمسين ألف دولار التي سيظفر بها كل فرد منا.

أكمل براد:

- والليلة هي لقاؤنا ليرسم لنا باندي الخطة الكاملة والتي سنقتحم بها الكوخ..

صفق الجميع لبراد متظاهرين بتأثرهم بخطابه، ثم أخذ براد يتحسس الأسلحة الكثيرة، ثم نظر لهيثم وأحمد وفؤاد مبتسماً وهو يطلب منهم الصعود لإستلام الغرف التي سيقضون فيها الليلة..

* * *

وفي المساء، تناول براد وفؤاد وهيثم العشاء على الطاولة الطعام التي امتلأت بأصناف الطعام، لمْ يمتلك أي منهم شهية للأكل عدا براد الذي أمسك بشوكة وسكين وأخذ يتناول كل ما وقع أمامه..

انتهى من العشاء وذهب إلى غرفة الترسانة حيث الرجال ينتظرون أن يشرح باندي لهم الخطة، كان باندي يقف أمام اللوحة الكبيرة وبيده عصا نحيلة وقلم أحمر، جلس براد على أريكة في المقدمة وجلس بجانبه فؤاد وأحمد وهيثم، ومن ورائهم يقف ثلاثون رجلاً بارزي العضلات ومتهجمي الوجه.

أخذ باندي يشرح:

- ركزوا معي جميعاً.. هذا هو الكوخ، وهذه هي الطرق المؤدية له وسط الغابة، هم ثلاثة طرق تصلح للسيارات، من هذا الطريق سوف تنطلق سيارتان تحمل كل منها خمسة رجال، ومن هذا الطريق سوف تنطلق ثلاث سيارات واحدة منها تحمل صناديق الأسلحة الإحتياط، والأخرتان سيستقلوها عشرة رجال، والطريق الثالث والأخير هو أقصر الطرق، والذي ستنطلق فيه سيارتان ستحمل واحدة السيد براد وضيف ممن معه وأنا معهما، والأخرى سيكون فيها الضيفين الآخريْن وثلاثة من الرجال..

سعل ثم تابع وهو يشير للكوخ:

- نحن لا نعلم ما الذي سيواجهنا بالداخل، وهذا سيصعب علينا بعض الأمور، لكن ما نعرفه جيداً أن هناك قوىً خفية تقطن في هذا

الكوخ، وربما تكون هناك قوىً بشرية، لذا سنبدأ بعشرة رجال سيدلفون بأسلحتهم ومصابيح، لكن قبلها سوف يلقون بقنابل مُسيلة للدموع، ثم يخبرون المجموعة الثانية بالتقدم.. ولقد جلبتُ الملابس اللازمة لهذه المهمة، ملابس سوداء وأقنعة تساعدنا على التفي من أعين المواطنين والشرطة، وكذلك ستمنع الغازات المُسيلة للمدموع من إختراق أنوفنا.. غداً سوف أخبر كل منكم بمجموعته، وأنا سأكون في المجموعة الأولى بالطبع.. وسننطلق عند إختفاء آخر خيط للشمس؟

انتهى باندي من خطته، فوثب براد من الأريكة يقول للرجال:

- والآن يا رجال حان وقت الإحتفال.. غداً سيكون يوماً شاقاً.

تعالت الصيحات من الرجال ومن اللامكان خرجت عشرات زجاجات النبيذ والكحول بمختلف الأنواع، وارتفعت نغمات الروك أند رول من سماعات ضخمة.. ووسط كل هذا الصخب والثُمل كان براد يقف أمام الخريطة غير آبه بما يحدث حوله، ذهب إليه هيثم وفؤاد وأحمد يطلبون منه الإختلاء بأنفسهم في أحد الغرف، حيث أن هذا المكان لا يناسبهم.. وافق براد.

صعد الرجال إلى أحد الغرف الواسعة في الطابق الثاني، وأخرج فؤاد سجادة صلاة من حقيبته، ثم وضعها في إتجاه قد تأكد منه عبر تطبيق البوصلة، وبهدوء قال كأنه يدعو الشابيْن إلى الصلاة معه:

- العشاء..

انحرج الشابان وذهبا للوضوء، ثم عادوا وأخذوا بعض الملابس ليفرشوها على الأرض كي يصلوا عليها..

انتهوا من صلاة العشاء فدعاهم فؤاد لصلاة ركعتين بنية أن ينجيهم الله ويكرمهم غداً..

مايك المُنتهي

بالتأكيد بعد كل ما فعلوه رجال باندي ليلة البارحة لن يستيقظوا صباحاً في نشاط، بل إنهم استيقظوا في منتصف النهار حيث لمْ يتبق على العملية سوى ساعتين أو أقل، لكنهم فجأة وفي دقائق إصطفوا في حديقة المنزل الواسعة المخضرة حيث صناديق الأسلحة، أخذ كل منهم السلاح الذي اعتاد عليهِ، ومسدساً صغيراً يخفيه تحت ملابسه..

ارتدى كل منهم الملابس التي أعدها باندي لهم، ملابس سوداء وقناع يكفي للرؤية فقط، ويثير الرهبة في نفوس من يراه عليهم خصوصاً مع هذه الوجوه الكاسرة، وقفازات سوداء حتى تكتمل الصورة.

حملوا صناديق الأسلحة الإحتياط في حقائب السيارات التي خُصصت لذلك، كلها كانت سيارات مرسيدس سوداء اللون تصلح للطرق الوعرة ولحمل الكثير من الركاب، ثم وقفوا صفوفاً حيث وزّع باندي كل مجموعة على سيارة وكل سيارتين في طريق واحد، وكان فؤاد وأحمد سيركبان سيارة واحدة بالإضافة إلى رجلين من رجال باندي، أعطى باندي سلاحاً ثقيلاً لفؤاد، فخذ يتعثر عدة مرت وهو يحمله حتى أثار ضحكات رجال باندي الذين يتسطيعون حمل

تلك الأسلحة بيد واحدة، وأعطى واحداً لأحمد وزوّده ببعض القنابل وعلّمه كيف يستخدمها على عجل، وأخذ براد سلاحاً وأعطى لهيثم واحداً، كانت كل الأسحلة مُجهزة بذخائرها لإطلاق الرصاص، لكن فقط تحتاج للضغط على زر الأمان..

ركب كل الرجال سيارتهم، وأمر باندي المجموعة التي تليه بأن تتخلف عنه كي لا يثير هذا الكم الهائل من السيارات الذعر والريبة لدى المواطنين، رغم أن براد قال البارحة أن المنزل قريب من الغابة، ولن يلجأوا للمشي بسياراتهم في الطرق المكتظة بالمواطنين.

أُغلقت أبواب المنزل وأُغلقت الأضواء، ثم بدأت سيارات المجموعة الأولى تتحرك خارج أبواب المنزل، مرت عشرة دقائق لتنطلق المجوعة الثانية، وبعدها المجموعة الثالثة والتي كان بها رجالنا.. براد وهيثم كانوا في السيارة الأولى، والثانية كان بها فؤاد وأحمد وثلاثة رجال، منهم واحد يقود السيارة..

سأل أحمد فؤاداً الذي وضع سلاحه في كنفه وأخذ صدره يعلو ويهبط:

- هل أنت خائف؟

نظر له فؤاد لوهلة، ثم قال:

- وحتى ولو كنت خائفاً.. لقد فات الأوان لإعلان هذا.

- أنا أشعر أننا في كابوس.. كثير من الأشياء غير منطقية وليس لها تفسير..!

- وأنا كذلك.. لكن مالا تعلمه أن مروان قد جاء لي في الحلم وأخبرني بكل هذا..

- ماذا؟! هل هذا حقيقي؟

- نعم.. هذا ما حدث معي.

- غريب جداً..

ضحك فؤاد قائلاً:

- كل شيء غريب.. ليس هذا فقط.

قال أحمد وعلى وجهه علامات الحيرة:

- أقصد أن.. أبي أيضاً جاء لي في الحلم، وأخبرني بأن هناك شخص سوف يطلب منك المساعدة، وشدد عليّ أن أساعده.

تعجب فؤاد كثيراً، اعتقد أنه الوحيد الذي راوده حلم يطلب منه تصديق براد في كل شيء.

ثم قال أحمد:

- إسمح لي بسؤال يا دكتور.

- تفضل يا أحمد.

ارتسم شبح إبتسامة على وجه أحمد:

- لمَ هذا الحب والإخلاص لمروان - رحمه الله؟، أقصد أنني لدي أقارب وكل هذا.. لكني لمْ أرَ وأسمع عن شيء مماثل لحالتك.

ضحك فؤاد حتى أخذ يسعل بشدة، ثم قال متبسّماً:

- ببساطة يا فتى أن مروان كان أكثر من أخ بالنسبة إليّ، لقد سمعت أيضاً عن ناس يتهمونني بالمبالغة وأشياء أخرى.. ومنهم زوجتى التي لمْ تتحملني في أكثر لحظات الحزن التي واجهتها في حياتي، لحظات لا تعلوها حزناً إلا يوم وفاة والدتي فقط.. هكذا طلبت الطلاق بسبب إهمالي لعيادتي وكل هذا، جاء ما تبقى من أهلي وأهلها وحاولوا إقناعها أن الحزن والصدمة سوف تتلاشيان تدريجياً، لكنها لمْ تصبر ولمْ تظهر شفقة ولا رحمة.. كما كانت تفعل عندما تراني ذاهباً لأزور مروان في منزله، لمْ تشفق على رجل وحيد منعزل طيب القلب.. فكيف تريدها أن تشفق عليّ.

صمت للحظات وهو يضحك على نفسه ساخراً:

- واكتشفت أنني لمْ أصب في إختيار شريكة حياتي بعد عشرة سنوات من الزواج، وبعد أول مطب.. إلى اللّقاء يا عزيزي، فأنا يافعة جداً على هذا الهم.

ثم أخذ يضحك مرة أخرى في سخرية، وسط نظرات أحمد التي تملأوها الشفقة..

- مروان.. لاطالما كان واهناً بدوني، كنت أسخر منه وأنهره دائماً، لمْ أكن أعلم أنني أوهن بدونه.. وسيأتي اليوم الذي سأسخر به من نفسي..

كانا يشعران بأن الطريق ازداد وعراً، فعلموا أنهم اقتربوا.. وفجأة وجد أحمد فؤاد ينظر له مقطباً حاجبيه، ثم قال:

- هناك سؤال يراودني منذ وقت طويل..

أردف مبتسماً في ريبة:

- هل تعلم كيف جاء براد بالمظروف الذي يحوي وصية مروان لي؟

- هاا؟!

ارتبك أحمد جداً لكنه حاول إخفاء هذا، ثم قال وهو يتحاشى النظر في عيني فؤاد:

- الحقيقة أنني لا أعلم.. هذا الرجل غريب جداً، لقد ثارت شكوكي حول أنه محقق مع كل هذه الثروة وكل هذا الغموض..

قال فؤاد ولازالت النظرة المريبة تعتلي ملامحه:

- الله يرحمه أستاذ كامل.. كان صديقاً عزيزاً.

- نعم فليرحمه الله..

أيقن أحمد أنه شك فيه بأنه هو الذي أعطاه الظرف، وشك في أبيه كامل أنه هو من أخذه من منزله مع هذه النظرة المريبة.

* * *

لقد وصلوا جميعاً إلى الكوخ، وقد سطع القمر وإتخذ رونقاً ينذر ببدء الحرب، إصطف رجال باندي مرة أخرى على بُعد عشرة أمتار من الكوخ، كان باندي يلقنهم عبارت التحميس في شغف وإنفعال، وطلب من ثلاثة من رجاله بأن يبحثوا عن أي شخص في الغابة ويخرجوه منها فوراً..

كان براد يقف بجانب أحد السيارات يتلفت حوله كأنه يبحث عن شخص ما، سأله هيثم فأخبره براد أنه ينتظر الساحر الذي سيحاول جعلنا ندلف للكوخ دون قطرة دماء، ثم يكسر اللعنة وينهيها..

وفجأة وجد براد رجلاً مكتنزاً يرتدي بذلة رمادية أنيقة، أشقر الشعر ولديه لحية طويلة، وجهه كالدمية لا يعطي مشاعراً ولا يمكنك أن تتبين هل هو مبتسم أم عابس..

كان يترجل ويقترب من براد، لمحه أحد رجال باندي فصوّب عليه سلاحه قاصداً الإطلاق وهو يصيح:

- مَن أنت؟

لمْ يجب الساحر وأخذ يدنو من براد، وأمر براد الرجل أن ينزل سلاحه.. وهذا ما حدث فعلاً..

المشكلة أن هذا الساحر كان آتياً من ناحية الدغل وليس من ناحية المدينة، وهذا ما أثار وجساً لدى رجال باندي بصدده، قال الساحر لبراد في لهجة حانقة:

- هل هذا هو الكوخ؟

- نعم يا سيدي.. نريد أن نعلم إن كان بإمكاننا الدخول دون أذى، ونريد أن نعلم ما الذي سنواجهه.

تركه الرجل دون أن ينبس ببنت شفة، وأخذ يدنو من الكوخ حتى أصبح قريباً جداً منه، ثم أمسك بكتاب لا أدري من أين جاء.. وأخذ يتحدث بصوت كالفحيح..

كان يعطي ظهره للكل، فلمْ يتبين أحدهم شكل الكتاب الذي استدعاه بقواه السحرية، حينها كان الجميع يتأمل شكل الكوخ.. كان منزلاً خشبياً صغيراً من طابق واحد.. كان يحوي نافذتين لكنهما لا تظهران ما بالداخل، فقط ظلام..

وعلى ضوء مصابيح السيارات أخذ باندي بتنظيم الخطة مع رجاله، إنه رجل عصابات، لكن يبدو أنه لديه خبرة حربية أو ما شابه..

ثم طلب منهم أن يخرجوا مصابيحهم، وكان يتمنى من داخله أن يفشل هذا المشعوذ في عمله كي لا يذهب كل الوقت الذي قضاه في تجهيز الخطة وجمع رجاله سدى.. لكنه لمْ يكن يعلم ما الذي سيلاقيه في الكوخ..

كان براد - ولأول مرة – متوتراً يتابع الساحر الذي يهز رأسه مع كل الكلمات التي يتلوها.

في بداية الأمر كان صوته خافتاً لا يمكنك أن تتبين كنهه، وبعدها بدأ صوته يرتفع تدريجياً، حتى أصبح صوت صراخ ونحيب، أخذ براد ينادي عليه ويسأله، لكن الآخر كان صوته يرتفع ويرتفع وبدا كأنه يبكي..

ثم فجأة ارتفع إلى السماء وهو يصرخ، بدا كأنه يطفو لكن هناك مَن يتحكم به، كان يستنجد بأسماء غريبة وصدا صوته يهز الغابة هزاً، وانفجر جسده كالقنبلة وتلاشت أحشاؤه وبقايا جسده على الأشجار.. ورأسه وقعت على الأرض أمام براد..

زاد الهرج بين رجال باندي، كانوا يريدون الهرب لكن منعهم باندي، فكر باندي أن يفجر السيارات على الطريقة المزعوم أنها لـ((طارق بن زياد))... وكان ينظر لبراد ينتظر أمر منه، لكن الصدمة أصابت براد بالشلل، كان يحدق في رأس الساحر التي بدا أنها تكلمه.. تكلمه وتطلب منه الهروب.

نظر هيثم للكوخ وشعر أن هناك شي يدور بالداخل، وبالفعل وجد الباب يُفتح ويصدر صريراً لا يعلم كيف سمعه وسط كل هذه الجلبة، ثم خرجت منها ما يشبه مصاصي الدماء أو الموتى الأحياء، كائنات بشرية حمراء اللون متهالكة البشرة كأنها خارجة من الجحيم حالاً، وهذا كان حقيقياً بسبب هذا الضوء الأحمر المتوهج الخارج من الكوخ..

أخذت هذه الكائنات تخرج وتنقض على كل مَن بالخارج، وفي فظاظة أمر باندي رجاله بأن يبدأوا الهجوم، أخذت الطلقات تتطاير هنا وهناك، سقط الكثير من هؤلاء الكائنات المخيفة، لكنها كذلك أسقطت رجلين من رجال باندي، كانوا عندما يقتربون من أحد منهم تتوهج أعينهم وتنفتح أفواههم الكبيرة لتظهر أسناناً حادة..

كان فؤاد يقف بعيداً عن الكوخ ويصوب سلاحه نحو هذه الكائنات، ربما أسقط منها واحد أو اثنين، أما هيثم وأحمد فكانوا أسرع وأخف في طلقاتهم، لا يخفى على أحد أنهم كانوا يرتجفون خوفاً، لكن بداخلهم شيء يجعلهم لا يأبون بخوفهم..

ثم بدأت الكائنات تخرج من فوق المنزل، حيث أحذوا فتحة في السقف يخرجون منها، ومن نقاط قوة هذه الكائنات، أن قفزتهم مفعمة بالخفة والقوة، يقفزون من فوق المنزل إلى الأرض والعكس، ويثبوا منقضين على الفريسة الواحدة بعدد منهم.

كان هناك واحد منهم يقترب من براد على قدميه ويديه، وينظر بعينين تشعان شراً ونار‌اً، ولكن بدا أن براد لازال متسمراً في موضعه يتابع المذبحة المرعبة بعينين من زجاج..

ركض هيثم وأحمد نحوه سريعاً يقتلون كل مَن يلاقونه من تلك الوحوش الكاسرة، كانوا في سباق مع الزمن كي يصلوا إلى براد قبل هذا الوحش اللعين.. سوف يفشلوا، هم يعلمون هذا، لمْ يتبق بين الكائن وبراد إلا بضع أمتار، سوف يفشلون، ومع ذلك هم مستمرون في الركض..

يصيح فؤاد بأعلى صوته:

- صوبوا عليه من مكانكم!!!!!

هذا صعب، إنها فقط ثوانٍ، لماذا هم مستمرون في الركض؟ ولماذا تدمع عينا هيثم..

ثم حدث شيء عجيب! لقد أصابت الكائن رصاصة فأردته قتيلاً، لكن مَن الذي فعلها؟.. نظر هيثم وأحمد ليجدا.. ميليندا!.. نعم إنها هي، ميليندا تحمل سلاحاً بصعوبة وتركض نحو براد.

لحق بها أحمد وهيثم وفؤاد أيضاً، يسيرون بين عشرات الجثث من تلك الوحوش، ذهبوا ليطمأنوا على براد، والذي قال عندما رآهم:

- اللعنة.. تستعين بمساجين الجحيم! يجب أن ندخل الكوخ الآن..

سأله هيثم وهو يلهث:

- كيف؟! إنهم يخرجون بالعشرات، ويزيدون تدريجياً.. رجال باندي يسقطون واحداً تلو الآخر..

نظروا إلى باندي ليجدوه يمسك بسلاحين ويطلق بهما النار على كل مَن حوله، يضحك كأنه ثمل.. يبدو أنه وجد النشوة في القتل.

دنت مجموعة من تلك الكائنات منهم، فتأهبوا جيداً لهم وصوبوا فوهات أسلحتهم نحوهم، أخرج هيثم قنبلة من جيبه وسحب صمامها، ثم ألقاها على السرب الزاحف نحوهم، فانفجرت تدمر الكثير منهم، والباقي قد انتهوا منه بواسطة الطلقات..

نظروا إلى رجال باندي الذين تبقوا، كانوا حوالي اثنا عشر رجلاً يقفون في دائرة يحمون ظهور بعضهم، لا يجسرون على الهجوم، إنهم فقط يدافعون عن أنفسهم ينتظرون الفرصة للهروب، وهذا ما لمْ يكن يعلمه باندي، والذي انشغل في رمي القنابل على الكوخ، وإصدار أوامر بالتفرق لمجموعات، وكان رجاله يلاقونها بالسباب، لكن في سرهم بالتأكيد.. لو سمعهم باندي لترك الكائنات وأخذ يقتل في رجاله.

وفعلاً جاءت الفرصة التي لن تتكرر، لقد تأخرت الدفعة القادمة من تلك الكائنات، تأخر خروجهم من الكوخ، وعندما انتهوا ممن تبقى منهم في الخارج، أخذ باندي يهتف في إنتصار:

- لقد انتصرنا عليهم!!

وفجأة أحس باندي بفوهة مسدس تلامس مؤخرة رأسه، بالتأكيد لن يلتف، إنه تصرف غبي ولا ينم عن الشجاعة.. صاح في غضب:

- مَن هذا الغبي؟

فقال أحدهم لاهثاً من الجهد:

- نحن آسفون يا باندي.. لن نقحم أنفسنا في أكثر من هذا!

- يا أيها الأوغاد!! أنا زعيمكم..

- ولهذا نحن لن نتركك، سوف نرحل جميعاً..

- ليس لديك الحق في إصدار الأوامر!!

صاح الفتى فيه غاضباً:

- وأنت ليس لديك الحق في جعلنا نموت هنا!!، كفى حتى الآن.. لا نريد الخمسين ألف دولار..

ثم وجد باندي أحدهم يمسك به في شدة ويلقي به في أحد السيارات، وطبعاً كله تحت تهديد السلاح.. ركب باقي رجاله في السيارتين، وانطلقوا بها بعيداً عن الكوخ..

صاح هيثم فيهم متسائلاً:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟!

أشار له براد بأن هذا لن يفيد، ثم قال لهم وهو يشير لباب المنزل:

- الآن لدينا الفرصة للدخول!

وفي تردد ترجلوا سريعاً إلى الباب وبأياديهم أسلحتهم، ثم فجأة سمعوا صوتاً مرعباً مثل صراخ عذاب، صوت يقتلع القلوب من الصدور، توقفوا جميعاً عن الحراك لثوانٍ، توقف صوت الصراخ للحظة، لمْ يفهموا لمَ صدر هذا الصوت ولمَ توقف؟ لكنهم علموا عندما رأوا مجموعة من تلك الكائنات يخرجون من فتحة السطح ولكن بأجساد مكتنزة بالعضلات والحوافر، وقفوا على السطح يطلقون بعض العواء مثل الذئاب، توسطت أجسادهم القمر المكتمل، وفجأة قفزوا قفزة طويلة جداً، وثبوا بها على السيارتين التي انطلقتا محملة باندي ورجاله.. كانوا لمْ يبتعدوا للغاية، لكن هذا لمْ يمنع أن القفزة كانت خارقة غير طبيعية..

كانوا حوالي خمسة، وثبوا على السيارتين فانقلبتا على منحدر، فتفجرتا وتصاعدت النيران حتى السماء.. ومات مع رجال باندي الوحوش المرعبة.

دلف براد ووراؤه هيثم وفؤاد وأحمد وميليندا..

لمْ يجدهم الوقت ولا المناسبة لسؤال ميليندا عن أي شيء.. كان الموقف صعباً..

كان المنزل مرعباً من الداخل، الكثير من النيران والمرايا، مرايا تظهر النيران في أسوأ حالاتها، وفي حذر سار براد حتى الغرفة

الوحيدة في الكوخ، كان بابها يبدو كأنه يحترق، لكن أغلب النيران بالداخل كانت غير واقعية..

أمسك براد بمقبض الباب في حذر وأداره.. ليظهر شيء في شدة الغرابة..

* * *

كان هناك ما يشبه الكهف، ممر مظلم طويل محاط بالصخور، نهايته غير واضحة.. وعلى جدرانه الكثير من الكلام المحفور بما يشبه أداة حادة، كما كان يفعل الإنسان البدائي قديماً.

طلب براد من الجميع إخراج مصابيحهم، وعلى ضوء المصباح أخذوا يتحركون بحذر وبراد يقرأ ما كُتب على الجدران:

- " ((ثابت بن فرعان)).. أحد خدام سيد النور العظيم، وواحد من أخلص الشياطين له، تربى على يديه هو وخمسة شياطين آخرين.. لمْ يكونوا خداماً فقط، بل كانوا تلاميذاً له.. علّمهم كيفية الوسوسة للإنسان من وهم في سن العاشرة، رغم أن الشياطين لا تعترف بالعمر كالبشر.. لكن كان هذا السن قياسياً بالنسبة للإنجازات الشيطانية التي حققها هؤلاء الشياطين، فمنهم مَن وسوس لهتلر والذي كان سبباً بعدها لكثير من تصرفاته الهوجاء، ومنها إحتلال بولندا، ثم إعلان بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا - والتي كان

رئيسها هتلر - ثم قيام الحرب العالمية الثانية، أكثر الصراعات السياسية والعسكرية دموية على مر التاريخ، والذي قُدر إجمالي ضحاياها بأكثر من ستين مليون قتيل..

ولمْ تتوقف جرائمهم حتى هذا الحد، بل كانوا أسوأ من هذا بكثير، كانوا السبب في أسوأ الصراعات الدموية التي كانت بذرتها الإختلافات السياسية في جميع دول العالم، تكفي كلمة واحدة منهم لتقوم حروب وإبادات ومذابح.. "

اندمج براد في قراءة تلك الكلمات، وهذا ما جعله لا يتحسس الطريق، فقط إنه يمشي في هذا الممر ويقرأ متسع العينين، وكانت هذه ردة الفعل لهم جميعاً..

- " هدفهم دائماً وأبداً هي إثارة الفوضى والخوف، يتغذون على ضعف البشر ويتحكمون بهم كالدمى بين الأنامل في مسارح الأطفال.. فيهم من الكبر والغرور ما أخذوه من مصدر الكبر والغرور في الكون بأسره، السيد العظيم ((لوسيفر)) أو إبليس الذي نزل إلى الأرض بسبب تكبره على الخالق.. إن جرائم القتل العادية والتي يُسمع عنها العالم يومياً هي لهو أطفال بالنسبة لهم، أصحاب فتن عظمى تسفر أتفهها وأقلها عن مقتل العشرات والمئات مرة واحدة.. لهذا أُطلق عليهم عند عابدي الشياطين والسحرة وتعني ((العظماء المتكبرون))، وهو اسم رقيق جداً مقارنة بهيئاتهم وأفعالهم.. "

بدأوا يحتكون بالجدران - لاإرادياً - ويتعثرون بالأرض التي أخذت تعوقهم بالحفر والحصى، ومع ذلك لمْ يلحظ براد هذا مع إنشغاله وإهتمامه بالقراءة ممسكاً بأحد المصابيح التي أعطاها له هيثم، وهم أيضاً انشغلوا بالإستماع لما يقرأه براد لهم..

- " وكان من ضمن ضحايا ((ثابت بن فرعان)) - أيضاً - مايك جيميري، والذي استغل ثابت فرصة كونه ضعيف خائف مأذي ومدمر نفسياً، ووجد أن هذه فرصة مناسبة لإستنشاق المزيد من الدماء.. لذا ذهب له في هيئة بشرية وعرض عليه بيع نفسه كي يصبح قوياً، قبل فوراً بشرط أن يتخلص من تلك المرايا التي تحيط به، بعدها أهداه ثابت قوة من عنده يستخدمها في إثارة نفوس البشر، وكان أول ضحاياه هؤلاء الذين أوصلوه لتلك المكانة، لهذا لمْ يسمح لنفسه بألا يرد لهم الجميل..."

أحس هيثم بأن براد شهق بعد آخر جملة نطقها.

وانتهت الكلمات المحفورة على الجدار الأيمن، نظروا جيداً ليجدوا أنه يتبع على الجدار الأيسر، أكمل براد قراءته:

- " ثم بدأت إبادة مايك - تحت سيادة ثابت - لكل من لديهم حياة حقيقية طبيعية رغم كل السلبيات، وهذا ما لمْ يكن يملكه مايك.. وتلك كانت الضربة الثانية من ثابت.. وتستمر قوى ثابت وأشقاؤه حتى نهاية الحياة.. كثرت قصص المهرجين المرعبين القتلة، لكن مايك لمْ يكن كذلك، لا يمكنك أن تتهمه لمجرد أنه كان منبوذاً ومكروهاً من الجميع.. ويا تري لماذا؟

لم يكن من ضمن طائفة متطرفة، ولم يكن يدعو لمعتقدات معادية للمجتمع، ولم يكن مختلفاً لدرجة الفطرة، ولم يكن يعاني أمراضاً نفسياً..

يجب أن تلوم المجتمع الذي كان يحُوله، ذلك الذي يصنع الأشرار، قال رجل ثري ذات مرة: لقد خلقَنا الله بشراً كي نرتقي إلى الملائكية، ولكن ما نحن الآن سوى شياطين لا نصلح إلى أن نكون بشراً.

فعقّب مايك عليه: إن الله خلقنا بشراً لنكون بشراً، ولا شيء سوى ذلك.. إن الله لم يُهدنا الكمال، لأنه هو الكامل، ونحن كبشر ما علينا سوى أن نفعل ما بوسعنا كي نكون أفضل، كي نكون نحن..

وهذه هي طبيعتكم يا بني البشر.. أنت هم الشياطين الحقيقيون، لهذا تستحقون كل ما أنتم به "

ظهر في آخر الممر نور ساطع كالبرق ممتزج بلون أحمر خفيف، نور يتوهج ويصدر صوت إشتعال، وكذلك ضاقت الجدران عليهم حتى أنهم إضطروا للسير وراء بعضهم يتقدمهم براد.. وبدا أيضاً أن الكلام على الجدار كاد ينتهي، صاح أحمد بصوت خفيض عندما رأى نهاية الممر:

- هناك نهاية!

أشارت له ميليندا بأن يهدأ، ثم طلبت من براد بأن يكمل، لمْ ينتظر براد أمرها لأنه كان سيكمل، وجّه ضوء المصباح ليرى أن لون

الكلام ليس طبيعياً، هو يتوهج مثل هذا الضوء الذي ينتظرهم في نهاية الممر:

- " هكذا هي قوة السيد العظيم.. لا تُردع أبداً، قوته المدفونة بداخل الـ((سوبيربي ماجني))، ليس لها نقطة ضعف، بل إنها تدعم الأشرار الذين يملكون نقطة ضعف، فتجعلهم يعملون بنور السيد العظيم، سيد النور والظلام.. "

سعل براد بشدة، بدا أن الأكسجين قد بدأ ينفد، وأيضاً بسبب تلك الرائحة المقبضة التي تنبعث من نهاية الممر.. لكنه أصر على أن يكمل:

- " لمْ يُهزم الـ((سوبيربي ماجني)) أبداً، وكل محاولات المصلحين باءت بالفشل، كانت نهايتهم شديدة السوء.. وهذه رسالة لمَن يقرأون تلك الكلمات الآن، سوف تظفرون حالاً بنهاية أسوأ من نهاية فرعون والنمرود.. والساحر صاحب الكتاب الغريب "..

وانتهت الكلمات على هذا، بالطبع كاد براد أن يغشي عليه من الصدمة، ثم صاح وهو يقف أمام نهاية الممر:

- هذه الكلمات كُتبت حالاً..!

كان المكان مهيباً.. جحيم كالذي يحكون عنه في قصص الرعب، نار ملتهبة وبرق وحمم بركانية في كل مكان، أصوات صراخ وعواء ونحيب وبكاء ظهرت الآن، لكن ليس هناك أحد، من أين تصدر تلك الأصوات؟!

وقفوا يتأملون ما حولهم في فزع، الجو يزداد حرارة وروائح كريهة، ثم فجأة من العدم.. ظهر رجل طويل القامة يرتدي رداءاً أسوداً، ويتدلى شعره الأسود الناعم على كتفيه، ووجهه شديد البياض والوسامة.. قال في نبرة ساخرة:

- ها هم المغامرون الخمسة الأتقياء يأتون للنيْل مني وكسر اللعنة وتعميم السلام على العالم مرة أخرى..

ثم انفجر في الضحك وسط نظرات الريبة والفزع منهم، سأله هيثم في صوت خفيض:

- مَن أنت؟!

نظر له للحظة، ثم قال مبتسماً:

- أنا ثابت بن فرعان.. اعتقد أن معظمكم أذكياء سوف يفهمون كل شيء، لكن يبدو أنكم أغبياء جداً..

ثم أردف وهو يجلس على عرش قد خرج من تحت الأرض:

- بصراحة.. أي كائن حي على وجه الأرض يأتي إلى هذا المكان بإرادة منه فهو أبله شديد الحماقة..

كانوا يقفون على أرض كالتل، أرض صخرية لمْ تمسها النار، بينما كان هو على أرض جحيم ينظر لأعلى ويكلمهم.

ثم أخرج ثابت تفاحة ناضجة حسنة الشكل حمراء اللون، قضمها في نهم وهو يقول:

- أتعلمون ما هذه التفاحة؟!

ثم أردف وهو يجيب على نفسه:

- هذه التفاحة التي أكلها آدم.. التفاحة التي أنزلتكم من جنات عدن إلى هذه الأرض النجسة، كلكم مثل آدم، وهذا بديهي لأنكم أحفاده.

استطرد وهو يقضم مرة أخرى من التفاحة:

- كنتم في الخارج تنعمون بالحياة الآمنة المطمئنة، لكنكم - بغبائكم - جئتم إلى هنا وأوهمتم أنفسكم أنكم في رحلة مقدسة لإنقاذ الأبرياء وكسر اللعنة.. إلخ..

ثم رفع التفاحة في هواء:

- وهذا الوهم يشبه التفاحة.. لكني سأصارحكم.. هذه التفاحة ليست حقيقة.

اختفت التفاحة من بين يديه كأنها لمْ تُوجد، ثم أشار بذراعه في حركة مسرحية إلى موضع نار، نظروا جميعاً إلى هذا الموضع ليجدوا شيئاً يخرج منها، يخرج ويصرخ.. مُقيد بسلاسل حديدية سميكة من يديه ورقبته، كان هذا هو مايك، لكنه بهيئته العادية، شاب نحيف يرتدي قميصاً محترقاً أظهر بعض مواضع من جسده، كان

يتلوى يبغى الفرار من سجنه، يبدو أنه يتألم، لكن ليس من النار.. إن النار بعيدة جداً عنه.. كان يتألم من شيء آخر..

صاح براد:

- هذا هو مايك!

تعجبوا جميعاً، نظروا إلى الوراء ليجدوا أن الممر قد أُغلق، كأنه جرح والتأم..

علموا أن ثابت يتلاعب بهم، وفي حركة شجاعة صوبوا أسلحتهم نحو ثابت، وقال هيثم قبل أن يضغط الزناد:

- بسم الله..

تصلب وجه ثابت، وشحب وتقلص ليصبح لونه شفافاً يظهر ما بداخله من نار، أغلق عينيه كأن تلك الكلمة آلمته.. ثم في طرفة عين عاد لطبيعته مرة أخرى، لكن هذه المرة بعينين حاقدتين كارهتين، لمْ يلحظوا شحوبه المفاجئ.. قال براد آمراً:

- أطلقوا النار!!

وأخذ كل منهم يصوب ويطلق على ثابت الذي لمْ يتأثر، بل ارتسمت إبتسامة ساخرة مما يفعلون، ورغم هذا لمْ يتوقفوا عن الإطلاق، كانوا يريدون إنقاذ مايك بأي طريقة..

ثم نظروا ليجدوا مئات علب الذخيرة والرصاص تحت أقدامهم، ثم نظروا إلى ثابت فوجدوه يقول مبتسماً:

- هذا مدد لا أكثر.. روحكم البطولية قد أعجبتني..

ثم صفّق بكفيه قائلاً:

- استمروا يا بواسل..

ثم ضحك وهو يقبض على سلسلتين طويلتين في آخرهما طوق حديدي ضيق مفتوح، ثم طوّحه في الهواء نحوهم لتقبض إحداهما على عنق ميليندا، والأخرى على عنق هيثم..

تهاوت أسلحتهما من بين أياديهما، وركعوا على ركابهم يحاولون فك قيدهم، وفتح الطوقين الذان اكمشا وضاقا على عنقيهما ليضيق بعدها تنفسهما..

أخذا يحاولان التنفس لكن بلا فائدة، اتسعت عيناهما وهما يطلبان المساعدة من فؤاد وأحمد الذيْن عرها إليهما يحاولان فك السلاسل.. وكان براد يحدق في ثابت الذي أخذ يتابع المشهد الذي يدور أمامه متمتعاً..

حاول فؤاد كسر الطوق الحديدي الذي التف حول عنق هيثم، وكذلك كان أحمد مع ميليندا، كادا أن يموتان خنقاً.. ولاإرادياً انهمرت الدموع من عيني فؤاد وأحمد..

ودون تفكير نزل فؤاد من على التل هارعاً إلى ثابت وهو يبكي.. أخذ يقول في رجاء بينما اختلط صوته بدموعه:

- أتوسل إليك أن تتركهما! سوف أفعل أي شيء من أجلك.. خُذني مكانهما.. إنهما شباب لديهم حياة ليعيشونها! أما أنا فعلى مشارف الخمسين.. لقد عشتُ بما يكفي..

تبعه أحمد فقال لثابت متوسلاً:

- خذني أنا مكان ميليندا!

واستطرد فؤاد:

- وخذني أنا مكان هيثم!

نظر إليهما ثابت كأنه يفكر، كان يتأمل ضعفهما وبكاءهما، فقال وهو يقترب من مايك:

- أنتم إذن تريدون المقايضة! لكم هذا.. لكني لا أريدكما، أنا أريد هذا!

وأشار بإصبعه إلى براد، تقدم براد قابضاً على أنفاسه، ثم ركع أمام ثابت في إستسلام وهو يقول:

- أنا تحت أمرك.. لكن هؤلاء ليس ذنبهم.

قال أحمد منفعلاً:

- لا خذني أنا!! أنا أمامك!!

فقال ثابت في غضب:

- هذا هو أحق مصير له! هو المذنب الحقيقي..

ثم حرك يديه في الهواء لتتكسر السلاسل التي قيدت هيثم وميليندا ومايك، والذين بدوا كأنهم عادوا للحياة من جديد.

ثم أردف ثابت وهو يشير لبراد:

- قُل لهم الحقيقة يا أيها.. المحقق!

ثم حرك ثابت يديه في الهواء مرة أخرى لينقل ميليندا وهيثم بقربهم.. ثم بحركة أخرى أخمد النيران التي من حولهم ليصبح المكان رماداً وظلمة، ثم فجأة تشتعل مصابيح كهربية حديثة لتبعث نورها مرة أخرى..

نظر ثابت بعينيه المتوهجتين لبراد كي يدفع للحديث، قال براد في ثبات:

- أنا لست محققاً، واسمي ليس براد آدامز.. أنا بينسن فيليبس، المليونير والد بيتر فيليبس.. ابني الذي احتجز مايك هو وأصدقاؤه، وكنت أنا السبب في هذا، أنا الذي عوّدته على التصرفات الهوجاء، لقد ربيته على أن المال هو كل شيء، يمكنك أن تدهس الناس بمالك، أن تقتلهم وتخيفهم..

ثم جهش بالبكاء وهو يمرغ وجهه في الأرض.. ويردد: أنا المذنب الحقيقي!

اندهش الجميع من الحديث، جحظت أعينهم وهم يحاولون إستيعاب كل هذا..

لكن ثابت نظر لهم وابتسم قائلاً:

- والآن.. أنا لا أريد شيئاً آخراً..

ثم لوّح بيديه في الهواء، ليتحول هذا المكان الغريب إلى الكوخ، لكن هذه المرة لمْ يكن لا براد ولا ثابت معهم..

كان فؤاد وأحمد وهيثم وميليندا ومايك، كانوا ينظرون لأنفسهم غير ناطقين، ثم فجأة سمعوا صوت سيارات شرطة بالداخل، ورجال شرطة يدخلون عليهم بمسدسات ويهتف أحدهم في حماسة:

- لقد تلقّينا بلاغاً بأصوات طلقات رصاص وإنفجار سيارتين.. ما الذي حدث؟

نظروا لرجال الشرطة، كل منهم لديه نفس النظرة المنهمكة التي تروي الكثير، كرر الشرطي حديثه مرة أخرى، وعندما لمْ يجد فائدة رفع مسدسه في وجوههم وهو يقول:

- أنتم رهن الإعتقال..

تمت بحمد الله..